(10) الفيزياء الدعوية

مهمة الدعوة فى الحقيقة أكبر من أن تحوّل أفرادًا من المسلمين إلى دعاة، وتربيهم؛ تنجز بهم إصلاحًا سياسيًّا واجتماعيًّا.

الواجب الدعوى أكبر من ذلك وأوسع.

الدعوة مكلفة أن تكون الشريك الأول فى بث عقيدة التوحيد وترسيخه بين العالمين أجمع، وبين ذرارى المسلمين الذين لم تتضح لهم معانى التوحيد ولم يدركوا وجوب تأديته إلى التزام شرعى كامل، لما هم عليه من اعتقاد سطحى لم يبلغ درجة اليقين بوجود الله تعالى ورقابته المخلوقات وتدبيره لحركات الحياة كلها.

العلماء ورثة الأنبياء، وكما كان النبى يبعث فى بنى إسرائيل لتصحيح اعوجاجهم وكبت معاصيهم وحملهم على الوفاء بالعهد والميثاق الذى التزموا به كسلوا أو انحرفوا، فإن الدعوة اليوم يجب أن تقف موقف أولئك الأنبياء عليهم السلام، فتعظ بنى الإسلام أن يتقوا الله حق تقاته، عبر غرس اليقين فيهم بوجود الله العليم القدير العظيم الرقيب سبحانه.

وفى عصر بلغت المدنية فيه مبلغًا من علو المستوى والرقى، وشاع فيه القول والخبر عبر وسائل الإعلام ليدخل كل بيت عبر التليفزيون حتى فى عمق غابة أو أطراف صحراء أو جزيرة نائية فان أقصر الطرق اليوم المتلائمة مع هذه الحقائق المدنية إذا أردت إقناع الناس بالتوحيد وما يستلزمه من اتباع شرعى أن تتوسل بوسيلة العلم، فتعطيهم وتضع بين أيديهم البرهان العلمى الكامل على وجود الله، وتبين لهم خطأ الملاحدة الذين لووا - عن عمد- حقائق العلم وأوهموا الناس من قبل، أو الذين استعجلوا الاستنتاج وبهرتهم الاكتشافات العلمية بعد عصر نيوتن بخاصة، فلم يعرفوا تفسيرها، فمالوا إلى المادية، ثم زادت المغالطات الماركسية لبس الأمور على العامة باسم العلم، فصار الابتعاد أكبر.

خلال القرن الأخير تجدد العلم وتوسع، ووصل فى النهاية إلى الإقرار بالتوحيد، وبرزت براهين على الإعجاز العلمى للقرآن الكريم والسنة المطهرة، ولذلك يجب على الدعوة

الإسلامية أن تحتفى بهذا العلم الجديد، وأن تروجه، وأن تتعلم بخاصة: المنهجية العلمية التى اتبعها العلماء حتى وصلوا إلى الإذعان التام فى النهاية إلى الحقيقة الكبرى، حقيقة وجود إله مدبر سبحانه.

ما كانوا مؤمنين يبتغون البرهنة، لكن الغالب عليهم أنهم كانوا «حياديين»، إن صح التعبير، طفقوا يتوغلون فى التجارب والاكتشافات بروح حيادية مستعدة لتقبل أى نتيجة، فلما كانت النتيجة وضوح الدلائل على وجود الله تقبلوها وآمنوا.

وخلال سيرتهم تلك اتبعوا منهجية صارمة هى التى أوصلتهم إلى نجاح، ولذلك يليق للدعاة أن يقتبسوا تلك المنهجية منهم، ويستعيروها، ويجعلوها طريق توغلهم لا لفهم حقائق العلم فقط واكتشاف مزيد منه، بل لجميع شأنهم الدعوى وممارستهم القيادية والإدارية والتعليمية، وحتى السياسية والاقتصادية، لأن الحياة وحدة واحدة، وبين أجزائها ترابط، ويستطيع الداعية عن طريق القياس على المنهجية العلمية أن يتبين الصواب فى جميع الميادين الحيوية.

وهذا الفصل معقود لمعرفة تلك المنهجية العلمية، والقياس عليها، والاستنباط منها، ومواكبة تطور علم الفيزياء بخاصة خطوة فخطوة، حتى مرحلته الأخيرة المعاصرة التى أفصحت عن دلائل التوحيد، وبيان ضرورة تناول دعاة الإسلام لمجموعة الحقائق الفيزياوية من أيدى علماء الغرب ليبشروا أئمة الإسلام وينذروا بها الإنسانية كلها، ليبدأ عهد جديد فى التاريخ الإنسانى يصعد فيه على ضوء الإيمان سلم حضارة إسلامية تنتشل الكتلة البشرية العالمية كلها من طيش جيل من الساسة فى أميركا امتلكوا القوة، فزعموا نهاية التطور، واستكبروا استكبارا، وقادهم استكبارهم إلى اعتقاد وجوب تبعية كل الأمم لهم، وهو نمط من الوهم يضاد المنهجية التى أوصلت العلماء إلى أن يضعوا فى أيديهم الأسلحة التى وهبتهم القوة، وإنما كان ذلك لأن مرد الأمور فى الآخر إلى طبائع النفس البشرية، وفى النفس استعداد للغرور والظلم، ولكونهم ساسة يفتقدون الروح الحيادية التى عند العلماء فإنهم أخذوا من العلم ما يخدمهم، وتركوا منه ما يفضح عدوانهم، فى مخالفة للمنهجية واضحة.

وبتبشيرنا وإنذارنا نرجو أن نصحح مسار الإنسانية، ونبدأ مرحلة حضارية إسلامية جديدة بعد عهد من الشرود والأوهام.

لكنى وجدت أخى الدكتور محمد التكريتى قد اختصر لى الطريق عبر كتابَيْه «حبات المعرفة» و«القوة الخفية»، فأوجز فيهما الإشارات المنهجية، ومراحل تطور عليم الفيزياء حتى وصولها إلى الإنجازات العظيمة لفيزياء الكم، وقررت اعتماد روايته التى أجاد فيها العرض، بأن أختصرها وأذكرها بشكل مقتضب، ثم أقوم بالتعقيب عليها، وقياس ما ينبغى أن تكون عليه منهجيتنا التربوية والدعوية العامة.

*** قال أبو زاهد د. محمد التكريتى:**

العلم إنجاز إنسانى وإرث بشرى لا تحتكره أمة أو حضارة، بل كل الأمم ساهمت فيه، وعلم الفيزياء هو أساس العلوم وأكثرها نفعًا، لذلك بدأ علماء الإدارة والاقتصاد والعلوم الاجتماعية النظر فى النظريات الفيزياوية ليستخلصوا منها أفكارًا جديدة تساعدهم. لذلك نقتبس علم الإدارة الدعوية أيضًا بل حتى التصور عن الكون والحياة وقضايا العقيدة.

علامة الاستفهام والشك المنهجى هى أساس تطور العلوم، فكل ما نتوصل إليه لا يمكن أن يكون آخر الحقائق.

لاحظ أبو زاهد أن مناهج العلوم فى البلاد العربية «غنية بالمادة العلمية، ولكنها فقيرة بتوجيه الطالب إلى التفكير العلمى، ليست هناك مادة تتناول قضية المعرفة العلمية، ومناهجها، وطرقها، وكيفية الوصول إليها. نجد مثلاً اهتمامًا بقوانين نيوتن فى الحركة، أو معادلات ماكسويل فى الموجات الكهرومغناطيسية، ولكن ليس هناك اهتمام فى كيفية توصل نيوتن إلى قوانينه أو ماكسويل إلى معادلاته، وليس هناك اهتمام بتقييم المعرفة العلمية من حيث طبيعتها ومصادرها وحدودها ومناهجها، وهذا نقص؛ لأن التفكير الحضارى والثقافى يعتمد على التفكير العلمى قبل اعتماده على المضمون العلمى. التفكير العلمى يعنى القدرة على حل المشكلات أيًّا كان نوعها: اجتماعية، أو ثقافية، أو اقتصادية، أو غير ذلك، أما المضمون العلمى وحده فقدرته مقصورة على حل المشكلات فى المختبر أو الورشة.

أقول: وهذه الملاحظة جديرة بأن تلحظها مناهج التربية الدعوية، فالمنهج ليس مجرد

معلومات تلقن للداعية وإنما هو فكر أصولى يعين على الاجتهاد واستنباط أحكام جديدة، وإنما تستخدم المعلومات وأقوال الفقهاء كأمثلة تعين الداعية على التصور وتورد كتمرين لذهن الداعية.

*** يواصل د. التكريتى كلامه ويبين أنه:**

يجب أن نعرض مسيرة العلم الحديث ومنهجه والمضامين الفكرية والفلسفية لنظرية الكم، فى محاولة التعرف على حقيقة الكون، أوجد اليونان منهج الاستنتاج المنطقى، وظنوا أنه سيجيب على كل التساؤلات، ولكن ظل الاختلاف، لأن العقول تختلف، ومن ثم تختلف الأدلة العقلية التى يقوم عليها المنطق. أما البابليون فاعتمدوا الاستقرا، ثم قامت الطريقة العلمية، ونجح الإنسان فى التعرف على كثير من ألغاز الكون وظن العلماء أن العلم سيجيب عن كل التساؤلات وشاع التفسير المادى والمنهج التجريبى، ولكن الاكتشافات العلمية الأخيرة تقترب من إدراك أن الإنسان جزء أساسى من حقيقة الكون، وأن هناك نظامًا وغاية وقصدًا للوجود كله.

وكذلك إدراك الواقع، ليس هو طريق كامل لإدراك الوجود، لأن إدراكنا للواقع محدود، وأظهر الأمثلة على ذلك صعوبة إدراك البعد الرابع المتمثل بالزمن بعد الأبعاد الثلاثة من طول وعرض وارتفاع، مما جاءت به النظرية النسبية، كيف وأن بعض النظريات تقول بأبعاد أخرى عديدة.

وفى العلم الحديث أمور يصعب إدراكها، مثل قانون تكافؤ المادة والطاقة، الذى جاءت به النظرية النسبية، والقائل بأن الطاقة تساوى حاصل ضرب الكتلة فى مربع سرعة الضوء، فنحن ندرك الطاقة والكتلة كلا على حدة، ولكن لا نستطيع إدراك أنهما شىء واحد، مع أن التجربة تثبت ذلك.

وكذلك الضوء، مكون من فوتونات، وهى دقائق صغيرة، والضوء موجات فى الوقت نفسه، وكذا الإلكترون له هذه الطبيعة الثنائية، وأى جسم فى الكون هو كذلك، ومن الصعب إدراك ذلك مع أن التجربة أثبتته.

obeikandl.com

وكذا وجود المادة المضادة، كتضاد الإلكترون السالب مع البروتون الموجب. كذا تباطؤ الزمن عند السرعات العالية مما تقول به النظرية النسبية. والاكتشافات العلمية الحديثة تؤكد حدوث الكون، وأن بدايته كانت فى الانفجار العظيم قبل 13بليون سنة، أى هو مخلوق وليس أزليًّا كما ظن قدماء العلماء، ثم طرأت نظرية الكم الفيزيائية، وأثبتت أن الدقائق الصغيرة مثل الإلكترون لها سلوك لا يمكن تحديده تمامًا، وبذلك انهارت القاعدة العلمية القديمة القائلة بأن لكل حدث سبب ولكل سبب نتيجة.

وكل هذا إثبات لمعنى الإيمان الإسلامى الذى يوقن بالقدر الربانى، وأن لله تعالى حكمة خاصة وهو خالق الأسباب والمسببات.

حتى الرياضيات ثبت أنها تحتوى على فرضيات لا يمكن البرهنة عليها، وآخر توجهات العلم هو محاولة توحيد جميع قوانين الفيزياء فى قانون واحد يفسر كل شىء، وقد نجح العلماء فى توحيد بعض القوانين، وما زالوا عاجزين عن توحيدها كلها، ومن نتائج توحيد بعض القوانين: نظرية المجال الكمى، وفيها أن الإلكترون يمتص الفوتونات ثم يطلقها بسرعة كبيرة، وهكذا فإن الإلكترون تحيط به غمامة من الفوتونات، كما أن الفوتون محاط بغمامة من الإلكترونات التى امتصت الفوتونات، وهذا يعنى أن الجسيمات مرتبطة بالمجال ولا تنفصل عنه، وأن فوتون الضوء لا يسير فى الفضاء بل يسير من خلال تفاعله مع المجال، وفى هذا المجال الذى تكرر فيه عمليات الامتصاص والإطلاق تتكون طاقة عظيمة جدًّا تملأ الفضاء الخارجى الكونى الذى نظنه فراغًا.

ومن خلال قياس العلماء لقطر نواة الذرة وكتلة الإلكترون وعمر الكون، تبين أن نسبة الكميات الصغيرة جدًا إلى الكميات الكبيرة جدًّا فى الكون تدور حول رقم 1040؛ أى: واحد أمامه إلى جهة اليمين أربعين صفرًا، ويسميه البعض الرقم الكونى.فالنسبة بين أكبر مسافة معروفة فى الكون – وهى قطرالكون – وبين أصغر مسافة – وهى قطر البروتون – تساوى الرقم الكونى هذا. وعمر الكون إلى أصغر زمن معروف يساوى هذا الرقم الكونى. وكتلة الكون إلى كتلة الإلكترون تساوى مربع هذا الرقم الكونى.

كى تتصور صغر الإلكترون: فإنه لو اجتمع 6 مليارات يعيشون اليوم و جمع كل واحد منهم بليون إلكترون يوميًّا فإن جمع كيلو غرام واحد من الإلكترونات يحتاج إلى 500 بليون سنة، أى: أكثر من 83 مرة من عمر الكون.

وكل هذا الكشف العلمى مرتبط ارتباطًا وثيقًا بمنهج المعرفة، والذى يتقاسمه منهجان: منهج الاستقراء، وفيه يتم تعميم الملاحظات الجزئية لإيجاد قاعدة عامة، أى أن الاستقراء هو عملية تعميم، فلدينا مجموعة حقائق أو ملاحظات تبدو منها ملامح أو معالم أو أنماط معينة تجعلنا نضع فرضية نتوصل منها أو بها إلى قاعدة معينة، وكثير من قوانين الفيزياء تم اكتشافها بالاستقراء، أما المنهج الثانى فهو الاستنباط والاستنتاج، حيث يكون الابتداء بفرضية، أى وضع قاعدة أو نظرية تستخدم كإفادة بشأن الملاحظات الأساسية. وتعتمد جودة الحجج المنطقية على جودة المسلمات الأساسية. كان أرسطو يرى أن أى برهان يجب أن يتبع هذا المنهج المنطقى، أى الإدلاء بنظرية تقود إلى فرضية تقود إلى ملاحظة تقود إلى إثبات. ولكن وجد فى بعض الأحيان أن رفض إحدى المسلمات يؤدى إلى فتح آفاق جديدة وتصورات جديدة لإدراك العالم، فإسقاط المسلمة الخامسة للهندسة الإقليدية قاد إلى وضع هندسة جديدة كانت لها فوائد عظيمة فى نظرية النسبية العامة، كذلك المنطلق الذى تقوم عليه الرياضيات لا يمكن الوثوق به وثوقًا مطلقًا، إذ هناك مستحيلات فى الرياضيات.

وهكذا فإن الاستقراء والاستنتاج طريقتان مختلفتان. مجال الاستقراء أوسع؛ لأنه يسعك أن تستمر فى الملاحظة والقياس قبل أن تضع الفرضية أو النظرية، ومجال الاستنتاج أضيق، لأنك وضعت فرضية من البداية وعليك أن تثبتها عن طريق الملاحظة والقياس. حاول دارون أن يتوصل إلى نظرية عن طريق الاستقراء فلم يستطع، وبعد خمس سنوات تحول إلى الاستنتاج فوضع فرضية التطور وحاول إثباتها، ولم يزل أنصار نظريته يحاولون إثباتها.

يعتمد أكثر الباحثين اليوم على طريقتى الاستقراء والاستنتاج معًا فى دورة متكاملة، وكان روجر بيكون وكروسيتست قد قالا بطريقة الاستقراء على أن يعتمد الاستقراء على معرفة الحقائق بطريقة دقيقة وشاملة، وأن هذه الحقائق يجب أن تؤيد بالتجارب، ومال ديكارت إلى الاستنتاج، وأصر نيوتن على أن الاستنتاج والاستقراء يجب أن يتضافرا معًا مع ضرورة تأييد

ذلك بالتجربة، وأصبح هذا المنهج التجريبى المادى المازج بين الاستقراء والاستنتاج هو المنهج العلمى الحديث، لكن الغلو فيه أدى إلى رفض مباحث ما وراء الطبيعة والعقائد الدينية.

وقد قسم جون ستورات ميل الاستقراء إلى أربعة طرق؛ الاتفاق: وهو اشتراك ما نستقرئه فى أمر واحد. والتباين: وهو اتفاق ما نستقرئه فى أمور واختلافها فى أمر أو أمور. وعنده أن هذا هو أهم طرق الاستقراء. والتلازم: وهو علاقة ظاهرتين بأمر واحد، مثل علاقة المد والجزر بالقمر. والحذف: وهى استبعاد أمور نجد بالملاحظة أنها لا تؤثر فى الأمر المستقرأ.

*** أقول:**

وكل هذه الطرق فى منهجية العلم هى طرق تليق لاكتشاف قضايا الدعوة وسياساتها وبنائها التنظيمى، ولوضع قواعد تحكم مواقفها بعد حكم الشرع، ولذلك فإن التربية الدعوية يجب أن تقوم بمهمة تعليم الدعاة النمط المنهجى السليم فى التفكير والاستقراء والاستنباط وتحليل القضايا والمشاكل ليكونوا أقرب إلى الصواب فى قراراتهم وخططهم ومواقفهم، وهذا يعنى وجوب وجود وجه ثان لمعنى المنهجية فى التربية الدعوية، فكما أن القيادة الدعوية مكلفة بأن تصوغ العملية التربوية وفق معايير منهجية، وتتخذ لها من الأساليب فى تنفيذها ما تحكمه منهجية واضحة، وهو ما تتحدث عنه فصول كتابنا هذا، أى أن تختار القيادة منهجية معينة فى التربية تكون قد توصلت لها عبر محاكمات عقلية وربط واستقراء للواقع والحاجات وتحليل للمرحلة، بحيث تعطى وصفة منهجية جاهزة تحمل المربين الدعويين على الالتزام بها، فإن القيادة من وجه ثان مكلفة أن تضيف إلى هذا المنهج المختار لمسات عديدة وتوجهات من شأنها أن تدرب الدعاة على ممارسة التفكير المنهجى ومعرفة أصوله وقواعده، كى يخرج هولاء الدعاة من حدود التقليد إلى الاجتهاد والإبداع والذاتية والابتكار والمبادرة إلى اكتشاف العيب والنقص وعلاجهما، وكذا اكتشاف الفرصة والصواب الذى يحمله المنهج فعلاً لتنميتها، فيتحول ما كان فراسة فقط أو استنباطًا إلى شىء مجرب يعامل كأنه قاعدة أكدتها الأيام، وبهذا سوف لا تبقى قضية المنهجية عندنا قضية جامدة ساكنة يتلقى فيها الآخر عن الأول نتائج تفكيره ويستقبلها استقبال الإرث المقدس الذى لا

يمس، وإنما ستخرج المنهجية إلى أن تكون قضية حية متطورة متكيفة مع المستجدات والمتغيرات، وهذا التكيف والتطور هو أوضح دلالات المنهجية فى الحقيقة، وإنما تراد لما تؤدى إليه من هذه النتيجة التى تتجاوز الموروث مهما امتزج بعاطفة عرمة تقترب به من التقديس أو الإعجاب، ولو بقى اللاحق مشدودًا إلى تأمل براعة السلف لما حصلت للحياة حركة أصلاً أو للعلم انطلاق، ولما فر يائس إلى أمل، ولا مهزوم إلى نصر، ولا فقير إلى غنى، ولا جاهل إلى تمييز، ولكنها المشاكل تعرك وتفرك وتضغط فيكون التملص، ويبدأ صعود بعد هبوط، وعزيمة بعد فتور، وتخطيط بعد ارتجال، وتدارك بعد إهمال، وهذه الأوصاف تعنى ولابد أن المنهجية الدعوية تؤديها أجيال متعاقبة مثلما تتساوى فى حقوق الأخوة وحق الرفل بعواطف الإيمان وتبادلها أنها تتساوى أيضًا فى حق التفكير والإضافة وفحص الماضى ونقده، بل تتساوى أيضًا فى واجب التفكير، أى أن تتعامل مع الفكر كواجب حتمى لا فكاك منه تلتزم به، وليس مجرد حق تستمتع به، وإذا وصل إحساس الدعاة إلى هذا الحد فقد نجحت التربية الدعوية فى وصفها المنهجى، واجتازت القنطرة وطفرت العقبة. أما أن أنفارًا من الدعاة ليسوا أهلا للاجتهاد سيتطفلون ويتطاولون ويتخذوا التغيير متعة فهو أمر قد يحدث فى كل جيل، لكنه طارئ يحاصره الثقات، لأن المنهجية نفسها هى التى ستتولى التعامل مع هذا النشاز المائل، وتفحصه، وتعرى ما فيه من خطأ، والعقول تغلب الجهل، وحوار العباقرة أعلى من كل صخب ولو استعار قوانين الألحان لحين.

ولأن ضرب الأمثلة من السنن الحسنة وينفع فى تقريب المعنى إلى الذهن فمن النافع إذن أن نعيش لحظات مع مثل يبين أهمية السليقة المنهجية فى توجيه أمور الحياة، فإن أهل قرية لو اشتكوا الفقر إلى جمعية خيرية فإن الجمعية يسهل عليها أن تنجد كلاًّ منهم ببعض مال يشبعه وعياله إلى حين، ولكن الجمعية تتجاوز ذلك ولا تملأ الكفوف بدراهم تفنى خلال موسم، إنما تضع فى كفوفهم معاول ومطارق ومناشير وشباكا مع بذور وخشب وحديد ومسامير وألوان وعربة وورق، وتتيح لهم مهنًا تدر عليهم موردًا دائمًا على مر السنين من فلاحة ونجارة وحدادة وصيد، مع عزة النفس وتعليم أخلاق الإباء والعفاف، وتشترى ربما لكل بيت بقرة أو نعجة، لتضمن لهم الحليب الذى هو عنوان حسن التغذية، وربما اشترت لأرامل لا معيل لهن مَكِنَاتٍ خياطة لتكون لهن سبب رزق، ثم تقتطع الجمعية 5 ٪ من دخل كل

رجل لتجميع رواتب لرجل من أهل القرية يتولى التسويق وآخر يتولى الإدارة والرئاسة، وتعيش القرية كلها فى حياة تعاونية لم يكن المال الذى بناها بأكثر من النقود التى توزع مرة واحدة وتستهلك بلا تكرار. وأمر المنهجية فى التربية الدعوية قريب من هذا، فإن الدعاة ربما يتمنون أن تهديهم قيادتهم منهجًا تربويًّا كاملاً، وهو أمر يتاح للقيادة خلال جلسات تعصر فيها فكر أعضائها، ومؤتمر لبعض أهل العلم من الدعاة، والأمر قريب مع ما فيه من صعوبة، ولكن الأولى والأجدى أن تفطم الدعاة عن التقليد، وتعلمهم الطريق إلى تكوين المنهجية، وتضع لهم منهجًا يكون نواة ومركزًا للعلم الذى يحتاجونه فى حده الأدنى، ثم تشجع فيهم روح التطلع إلى التكميل والزيادة والإنماء والتغيير والتطبيق المرن وفق نظرات نسبية موضوعية ومكانية وزمانية، وتكون التربية مهنة كل داعية، يربى نفسه مثلما يربى من معه، ولا يعود مجرد فقير مسكين تحل له صدقات الفكر، فيبقى طول دهره سائلاً مكديًّا يترنم بالدعاء لمن يسعفونه بجزيئة من العلم أو بخاطرة أو فتوى أو بيان صريح، وإنما يكون هو المبدع المتصدق بكل طارف من الرأى، ويضيف إلى دعائه أناشيد التحدى وصيحات الفرسان.

ومرة أخرى يتوهم بعض الدعاة أن هذا التعليم لطرائق المنهجية، ينبغى أن يتمثل فى كتب معينة تساق ضمن قائمة المراجع فى المنهج التربوى المختار، وليس هكذا يتم تكوين السليقة المنهجية فى الداعية، ولربما يحتوى المنهج على كتب فى طرائق المنهجية، تعين المربى، ولكن الأهم هو التحريك الفكرى الذى يقوم به المربى لمن معه عن طريق التصدى لفهم قضية معينة، جذورها وأسبابها ومظاهرها ونتائجها، فيقوم معهم عبر حوار مشترك باستقراء كل ذلك، وبالاستنباط، وباستنطاق التاريخ والواقع كشواهد إثبات، ويحدد معهم الاتفاق والتباين والتلازم والحذف والتعميم والاستثناء والتحليل والتركيب والاقتراب والإنفراد والشذوذ والتفريع والاشتراط وأمثال ذلك من المعايير المفسرة للقضية المبحوثة، وبتكرار ذلك مرات عديدة، وإسعاف هذه الطريقة ببحوث ومحاولات يقوم بها كل داعية بمفرده، ويعرض نتائجها على المربى لينقحها: تتكون السليقة المنهجية فى المتربين ويكونون أقرب إلى الاستقلال الفكرى والندية، ويعين على ذلك أن تهب القيادة مفكرًا مثقفًا عالى المستوى إلى الحياة الدعوية المسترسلة، ليخالط الدعاة عبر الحياة الاجتماعية الحرة من قيود التنظيم

والعلاقات المحدودة المسماة المقننة، فيشافه الجميع، ويستشيره الجميع، ويقبس من هديه الجميع، فتنمو بذلك الملكة المنهجية نموًّا بطيئًا عن طريق الاقتداء والاقتناع، لكنه مضمون، وإذا كانت الدعوة تحيا حياة طبيعية فيها نشر صحفى وتأليف كتب وإلقاء محاضرات وعقد ندوات وخطابة فى حفلات فإن الطبيعة المنهجية تتقوى أكثر وتكون حلبة لكل ذلك، ليس كمثل ما فى أجواء العمل السرى المتكتمة التى تذوى فيها هذه الطبيعة وتضمحل تدريجيًّا لتنتج عناصر تتطرف فى التقليد الجامد الحرفى الأعمى، لذلك لا ترى موغلاً فى الولع بالعمل السرى إلا وفيه مسحة من هذا التقليد المتطرف، لأن هذا من هذا، والبعض يعجب من أمرهم والتفسير منه قريب. وهذا التقرير يوصلنا فى النهاية إلى أن تعليم الصنعة المنهجية لا يستلزم حشر أسماء كتب وتكليف الدعاة بمطالعتها بمقدار ما يستلزم الاستعانة بعدد من وسائل أخرى أكثر انفتاحًا وأبعد قبولاً لدى السائرين، من بحث ميدانى، وحوار تحليلى مشترك، واقتداء بألمعى منتصب فى الساحة يستطيعون تبادل الرأى معه، وحياة فكرية متكاملة من الهمس والتناجى، مرورًا بالإلقاء والخطابة، صعودًا إلى الترنم والهتاف، وصولاً إلى النشر والإذاعة، اعتلاء لذرى التحدى ومواقف المفاصلة وإعلان البراء، فبهذه الوسائل المتكاملة المتراكبة طبقًا بعد طبق تتركز أسرار المنهجية فى بؤر عقول الصاعدين، ويكون لها اتصال بنقطة اللذعة فى قلب كل مخلص يدعو ربه أن يهبه الإلهام والإبداع.

وقبل العودة إلى سياق كلام د. التكريتى أجد من اللازم الإشارة إلى ظاهرة متكررة فى كتبى، والكلام عن المنهجية مثال لها، وهى أن معانى كتبى تتقاطع كثيرًا، فمبحث المنهجية العام ومنهجية التربية الدعوية كما أنه مستقل، وله علاقة بكتب التخطيط، فإن له علاقة أخرى بمباحث كتاب حركة الحياة، التى سأتناولها فى كتاب آخر، فوجه الارتباط والاشتراك هنا أن الذى يريد السيطرة على مجارى الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية لابد له أن يتوسل إلى ذلك بوسيلة الفكر، فتلزمه منهجية فكرية شاملة يحافظ بها على فكره نقيًّا ويتوسع فيه إلى درجة الشمول ويهبه قابلية التطور والتجدد، وبوسيلة التربية من بعد، فتلزمه منهجية تربوية كذلك توفر أعدادًا كبيرة من معتنقى ذلك الفكر، يزاحمون به الآخرين، ويدفعون، وعليهم يتوزع ثقل المهمة التغييرية الجبارة، ولأن هذا التغيير يطال كل نواحى الحياة وزواياها فإن القائمين به يجب أن يبدعوا فى ظل مرونة تهبها قواعد النسبية، ولا مكان للتقليد والجزافية

والتبعية، لأن ضخامة الحركة الحيوية تصعب معها الإدارة المركزية الصارمة، بل هى فوق الطاقة البشرية المحدودة، وما من قائد مهما كان ذكيًّا وعالمًا وملهمًا ودؤوبًا يستطيع أن يوجه دقائق السكون والتحرك، ويذهب مع العاطفة إلى آخر آفاقها الممتدة، أو مع العقلانية إلى ذراها العالية وفى نفس الوقت يرقب رنين الذهب. ويجمعه، ويرد على مشوشين، ويثبت موسوسين، ويرفع معنوية يائسين، ويأخذ بزمام متهورين، ويفاوض ويشاور، ويسترق، ويشترى، ويستقبل مذعنين وتائبين، ويحالف القرين، ويحيّد الذين فى المنتصف،ويلتف على من هم فى الطرف، إذ المعركة جبارة، وساحتها ممتدة،ولن تكون قيادتها إلا قيادة جماعية عريضة لعلها تربو على الألف فى البلد الصغير أو المتوسط، إلى ثلاثة آلاف فى البلد الواسع الكبير، ولذلك يلزمهم الإبداع، والإبداع لا تأتى به إلا منهجية، والمنهجية لا يأتى بها إلا فكر، والفكر لمعة وقدحة، أو ومضة وشرارة، وإلهام ومواهب، وإيمان وإخبات، وسياق فى تكامل، مع انعطاف إلى جذور السلف الأوائل، ثم يعود مستديرًا ليحلق فى الأفق البكر، فملاحظة تقاطع المعانى تعين طالب فقه الدعوة على أن لا يأسر الموضوع إلى كتاب وإن أغراه العنوان أن ثمة استقصاء، وإنما يتجول فى الكتب الأخرى ليجمع شتات القول فى موضوع، ويضم بعضه إلى بعض، ولن يرجع بكمال، إذ الخواطر تترى، والشروح تتعاضد، وتدفع إلى تدوين آخر، الله أعلم كيف وبأى عنوان يكون.

* يواصل د. محمد التكريتى كلامه المعرفى، ويتحول إلى ذكر الفلسفة الوضعية المنطقية التى تميزت بعلمانية عارمة تنفى الدين بدعوى عدم قيامه على أساس تجريبى، أو منطقى، ولكن طروء نظرية الكم فى الفيزياء ووضوحها وإنجازاتها ما بين 1925م إلى 1965م ومواصلة ذلك حتى الآن – جعل أركان الوضعية تهتز، وكذا غيرها من الفلسفات العلمانية، ذلك أن فيزياء الكم والنظرية النسبية من قبلها جعلت العلماء يفكرون بطريقة جديدة تقتضى تفاعل المادة والروح معًا، وأثبتت فيزياء الكم طبيعة موجية للدقائق وللمادة بصورة عامة بدلت مقاييس القياس التجريبى كلية، وبعض الحائزين على جائزة نوبل فى الفيزياء يحاربون الوضعية، والمنهج العلمى الحديث فى الغرب الآن متأثر بآراء الفيلسوف كارل بوبر الذى يؤكد على أن معيار علمية أى نظرية هو إمكان نفيها وليس إثباتها، ويكون ذلك عن طريق الاختبار، وأن المعرفة المتراكمة خلال التطور البشرى هى أهم مصادر المعرفة، وأن البديهة

والخيال تشاركان الملاحظة والتعليل فى كونها مرجعية المعرفة، وهذا منهج ينافى الوضعية تماما، وعند بوبر أن الملاحظات والمشاهدات التى تثبت النظرية لا تعنى شيئًا، **فكل حادثة أو ظاهرة يمكن أن تقول:** إنها تثبت النظرية الفلانية، لكن نظرية أينشتاين فى النسبية – مثلاً– كانت صحتها تقوم على توقع ينطوى على المخاطرة فى نفى النظرية، وكانت قابلة للنفى والإبطال لو لم يثبت انحناء الضوء، وقد ثبت انحناؤه، لكن بوبر زهد فى الاستقراء ورآه لا يؤدى إلى علم، واعتقد صواب منهج الحدس، وهو اقتراح نظرية جديدة أو تعديل لنظرية قائمة أو تفسيرها بأفضل ما هو ممكن، وحجة بوبر أن الاستقراء قد يقوم على ملاحظة خطأ أو ملاحظات ناقصة، لكن هذا النقص فى الحقيقة لا ينفى ما أدى إليه الاستقراء من تطور علمى خلال تاريخ العلم، ولذلك اعترض بعض العلماء على هذا المنهج الزاهد فى الاستقراء.

وقاد كل ذلك إلى توجه معاصر يسمى «منهج المشكلة والحل» يتوسط ويجمع محاسن المناهج الأخرى، حيث تتركز البحوث العلمية، النظرية والتطبيقية، على حل المشكلات عن طريق حدس الحل ثم نقده نقدًا موضوعيًّا وتمحيصه واختباره، فإذا كان هناك عدد من النظريات المتنافسة لحل المشكلة، فيؤخذ بأفضلها، وتهمل النظريات الأخرى. وهذا الحل الجديد يقود إلى مشكلة جديدة، فتعاد الدورة من جديد.

ويعنى النقد الموضوعى: تمحيص النظريات والتفسيرات الجديدة على ضوء معايير تحددها المشكلة نفسها، ويعنى النقد اختبار النظرية، أى التجربة، والتجربة على نوعين: نوع لإثبات النظرية، ونوع لنفى النظرية، وما لم يكن قابلاً للاختبار يرفض.

* **أقول:** فكأن هذا المنهج أصوب، لأنه يجمع المنهجين المزدوجين معًا، منهج الاستقراء والاستنتاج معًا، ومنهج الإثبات والنفى معًا، وهو الأليق فى ظنى لقضايا الدعوة، وأحرى بالدعاة أن يسلكوه، مع أخذ خصوصيات العقيدة والفكر الإسلامى بنظر الاعتبار.

* **ثم يستطرد د. التكريتى فيبين أزمة العلم اليوم،** وأن التجريبيين الذين عادوا الإيمان لم يدركوا أن الحقيقة العلمية ما هى إلا أمر نسبى يتعلق بإطار المعرفة فى زمان ومكان معينين، وهذا ما يذهب إليه عدد من المفكرين المعاصرين.

أقول: إلا أن التأثير الإيجابى الأكبر الذى يمكن أن ينصب على الداعية المسلم ويدربه على

المنهجية الصحيحة المعتدلة الجادة يكمن فى نظرى فى رؤية جردية مختصرة لتطور علم الفيزياء والوقوف عند مفاصله المهمة ونقاط التحول والاكتشافات الكبيرة، بحيث يظهر تمامًا لمتتبع الاكتمال التدريجى للحقائق، فيكون هذا الرصد الشمولى وسيلة تعليم للداعية عن طريق المحاكاة ورد الفعل واستقرار المعانى فى اللاشعور، بها يتعلم الداعية انتظار اكتمال الإنجاز الدعوى عبر تطور مرحلى بطىء أو سريع تساهم فيه كل الأجيال الدعوية، وكل الطاقات المتوفرة، وجميع أهل التخصصات، بل ويستعار له من إنجاز غير المسلمين أيضًا، وبذلك تدخل هذه المحاكاة كمعلم بارز من معالم منهجية التربية الدعوية، والقيادية بخاصة، بذلك يدخل تاريخ التطور العلمى والفيزياوى بخاصة، كأساس فى تعليم المنهجية، بعيدًا عن تكلفات الفلاسقة وتنطعاتهم، ويغلب على الظن أن هؤلاء الفلاسفة كانوا أسرى نظرة علمانية مسبقة وأرادوا تسخير التجارب العلمية لتأييد علمانيتهم بنوايا منحازة ابتداء ولم يكونوا على الحياد، وهذه الخارطة الاستعراضية لتطور العلم الفيزياوى قد قام بها د. التكريتى فى فصول كتابه الأخرى، ابتداء من فصل مسيرة العلم، ولكن غرس الانطباع المنهجى فى النفوس الدعوية ينبغى أن يعتمد على استعراضات أخرى، طلبًا لتوجهات نقدية أخرى يتميز بها كل باحث، أو طلبًا لتفصيل أكثر لإنجاز معين أو مرحلة واحدة تكون المعانى المنهجية التى قادت ذلك الإنجاز أو تلك المرحلة وافرة كثيرة وباستطاعتها أن ترسم معالم المنهجية بوضوح، وتستطيع جلسات تعليم المنهجية الدعوية أن تأتى بشواهد من خلال استعراض منهجيات أعمال علمية جبارة، مثل اختراع القنبلة الذرية، والصعود إلى القمر، وبقية أعمال وكالة ناسا، وحرب النجوم، وتطور الاستخدام الليزرى، والمنظومة الجينية، ومحاولة الاستنساخ، مع ما يوازى ذلك من التطورات الاقتصادية الجبارة، مثل الجانب المنهجى فى صراع النفط، وصراع البورصات، وسيطرة منظمة التجارة العالمية، ونفوذ الشركات العابرة للقارات، أو مشاريع شمولية انتهت تجربتها وتقوياتها، مثل ابتداء الشيوعية وزوالها، وقيام إسرائيل منذ كانت مجرد حلم يراود هرتزل وتقلبها فى المراحل وعلوها العلو الكبير الآذن بالتتبير، وتصاعد السياسة الأميريكية حتى تسخير النظام العالمى الجديد، والوحدة الأوربية، ورد الفعل الأسيوى، مع ما يوازى ذلك من المشاريع التربوية الضخمة، مثل المشروع الأميركى فى إذابة تربيات الوافدين المهاجرين فى توجه تربوى أميركى

واحد وضع بصماته فرانكلين وظل ينمو حتى الآن، ونماذج الاستشراق الاستعمارى، وكل هذه المشاريع الكبرى والإنجازات حكمتها منهجيات معينة تشترك وتفترق، وفيها دراسات كثيرة يمكن للدعاة المحاضرين فى الدورات الدعوية تلخيصها واستعراضها، ليقتبس الداعية حرفًا من هنا، وحروفًا من هناك، فيستوى على عرش المنهجية، ويكون مبدعًا مبتكرًا بعد إذ كان مقلدًا تابعًا، وأما أن أوردها فى كتبى فهو أمر عسير، بل غير صحيح أيضًا لأن الإسراف فى الضغط والاختصار يذهب المغزى، وإنما مكانها الاستعراض الحر فى الوقت المستطرد عبر الدورات وخلال التلمذة الخاصة.

وهذه المعانى تسلمناه إلى متابعة سياق مسيرة العلم كما رواها د. التكريتى، ليوقفنا أولاً عند تأسيس البابليين لعلوم الفلك والرياضيات وبخاصة الجبر وعلم المثلثات والرياضيات، ثم مساهمة المصريين، وحسابهم لقيمة النسبة الثابتة فى مساحة الدائرة، ثم أخذ ذلك الإغريق عنهما وحوروا العلم أكثر، وعنهم أخذ المسلمون ووسعوا الإنجاز العلمى كما هو معروف، وعن المسلمين أخذت أوربا العلم وأوجدوا العلم الحديث، وهذا يعنى أن العلم إنجاز إنسانى شاركت فيه الأمم والشعوب، وكان فيثاغورس الإغريقى قد طور علم المثلثات، واعتقد كروية الأرض، وقال ديموقراطس بالنظرية الذرية وأن جميع المواد تتكون من عدد كبير من دقائق صغيرة، وقد طور أرسطو منهج القياس والاستقراء، لكنه اعتقد أن الأرض هى مركز الكون وأن الكواكب تدور حولها، لكن عالمًا آخر اسمه فون دامس خالفه وقال بأن الأرض تدور حول الشمس، ثم جاء إقليدس ووضع الهندسة الإقليدية، وأرخميدس صاحب القاعدة المشهورة.

وكانت النهضة العلمية الإسلامية وليدة منهجية إسلامية إيجابية فى الحياة ككل قبل أن تكون مجرد منهجية علمية، وأقيمت هذه المنهجية الحيوية على ثلاثة أركان: ركن التوحيد الذى ينفى الاستئسار لأساطير بابل الساذجة وأساطير الإغريق الشركية، ودعوة القرآن إلى النظر فى الكون والآفاق، واستقبال المسلمين للمشاركات العلمية بروح منفتحة ليس فيها نوع من الإرهاق الذى لقيه العلماء من الكنيسة والمعابد الوثنية، وركن تلبية حاجة الأحكام الشرعية من مواريث ومواقيت ومواسم عبر الرياضيات ومعرفة الفلك. وركن الأخوة الإنسانية التى تجمع المسلمين دون نظر إلى قومية وعنصرية، فكان فى علماء المسلمين العربى

والفارسى والزنجى والتركى، ومن خلال هذه المنهجية أضاف الخوارزمى الصفر إلى الحساب، ووضع ابن الهيثم نظرياته فى الضوء، واستعمل البتانى الدول الست للمثلثات فى علم الفلك، فى عشرات الإضافات.

* **أقول:** وينبغى أن يتوسع الدعاة فى دراسة هذه المنهجية الحيوية الإسلامية ويميلوا إلى تفصيل فيها وتدقيق، لأن هذه الأركان الثلاثة وبعض التوابع لها قد أطلقت الطاقات العلمية من عقالها، وشهدت الحياة أعظم ثورة علمية فى التاريخ الإنسانى فى ظل هذه الموازين الإيمانية التى سيطرت على النفوس والعقول وانصبغ بها الحاكم والمحكوم معًا، وهى مثال واضح ومؤكد لدور قضية المنهجية فى التطور العلمى، فإن التوحيد الذى يحرر الإنسان من عبودية الإنسان والأوثان والأوهام يوجد نفوسًا طموحة تواقة إيجابية الطباع عزيزة الغايات شريفة الوسائل، وكل هذه الخصال محاضن للإبداع العلمى وغيره، كما أن العلو على القومية والعنصرية بخاصة يشجع كل الطاقات على المشاركة والعطاء، لتساوى الفرص، وضمان المكافأة، وحفظ الحقوق، وكل ذلك يعنى لمن يتدبر من الدعاة تاريخ المساهمة الإسلامية فى العالم أن الحياة الدعوية الإسلامية الحاضرة، فى امتدادها العالمى، إذا حافظت على عقيدة التوحيد نقية غير مشوبة ببدع، وركزت على خدمة العلم لأغراض الدين، وأشاعت أحاسيس الأخوة الحقيقية النافية للتوترات القومية، فإن إنجازات هائلة تنتظر الدعوة أيضًا قياسًا على الإنجاز العلمى الذى أبرزته الحياة الاجتماعية الإسلامية الماضية، وأن الدعوة يمكنها أن تحقق أنواعًا من النجاح العلمى والسياسى والاقتصادى والاجتماعى عبر هذه المنهجية فى وصفها المجمل هذا فقط، المركز الملخص الذى ليس فيه غير الإشارات والعناوين العريضة، فكيف لو حصل تفصيل فى هذه الأركان المنهجية، وتم التفريع منها، والإضافة إليها، وإلحاق المكملات بها؟ إذن لتأكد النتاج الحسن، وتضخم العطاء، وتوفر عنصر تفوق حاسم على المنافسين فى جولات صراع الدعوة معهم، ولعل فى هذا المثل الإسلامى ما يشرح معنى المنهجية ودورها لمن لا يزال الأمر عليه مبهمًا خفيًّا، فالتأمل المكثف فيها يوضح تمامًا أن القضية ليست مجرد أمنيات فى قلب همام يريد إحداث تأثير ونتائج جديدة، ثم يتوسل إلى ذلك بوسيلة حشد معلومات وتأجيج عواطف واصطناع خطاب حماسة يأمر بالاقتحام والتقدم والإنتاج والإبداع، وإنما القضية قبل ذلك تتعلق بالمحضن الذى تنمو فيه القابلية،

وبطريقة تبادل الخبرات، وإنسانية التعاون بين العناصر التى تحاول إنجاز المهمة، ومنح الأمان لمن يحاول فيشذ ويغرب متأولاً، وحفظ الحق المادى والمعنوى لمن يصل إلى إنجاز قبل غيره، مع تكوين حالة نفسية ترنو إلى الأعالى والطموح وتزهد فى السفليات، لكن مع العفاف والطباع الأصيلة التى تتمثل فى الشجاعة والوفاء والمبالغة فى الصدق ونوايا الإحسان ومنح الخير للآخرين، فهذه العوامل كلها، متوجة بالعزة الفريدة النوع التى يحسها الساجد لله تعالى، المتبرئ من الإذعان لبشر، هذه العوامل هى التى تضمن الحد الأدنى من إمكانية اكتشاف أمر جديد أو اختراع أو رأى وفكر من قبل من يتعامل معها ويحاول فى ظلها، وهى التى تضاعف القليل، وتجمع الأجزاء الناقصة لتبنى منها شيئًا تامًّا، وإنما تتكون الخطوط العامة والأركان الواسعة لمعنى المنهجية من هذه العوامل إذا اجتمعت فى توجه واحد، ثم تزداد تأثيراتها بطرق تفصيلية فى الأداء والتجريب والمحاولة، مثل طرائق الاستقراء والاستنتاج والإثبات والنفى فى المجال العلمى وغيره، وربما الطرائق الجزئية المتكاملة مائة، يكون اللجوء إليها واستعمالها عبر افتراض التماكن والتبادل بينها، بحيث يليق لكل قضية أن تحكم ببعضها من غير تصور سابق لوصفة خاصة تجمع أجزاء هذه البعض للكشف عن القضية، وإنما من خلال المحاولة والتجريب قريبًا من طريقة التوافيق والتباديل فى الرياضيات فى معناها الأساسى المبسط، ويمكن أن تتم وصفات أو خلطات كثيرة حسب الطبيعة الموضوعية للقضية المبحوثة، اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية أو تنظيمية، فردية أو جماعية، فمثل هذا الدفع والإلجاء لمجموعة باحثى القضية أو الظاهرة لاستخدام هذه المعايير المنهجية تحت سقف الحسم النفسى الذى تولده عقيدة التوحيد، وفى ظلال التآخى الإنسانى بين المؤمنين، وربط المحاولات بأهداف خدمية للأحكام الشرعية والحياة الإسلامية، هو الذى يؤمل منه أن يوصل مجموعة البحث إلى نتائج وأشياء جديدة فيها إبداع وإضافة لم تكن من قبل، ويعجز التلقين وحشد المعلومات عن مثل ذلك، وبخاصة إذا لم تقترن به نفخة الاستعلاء الإيمانى بمقدار كاف، أو لم تحفظ الحقوق، أو نقصت مشاعر التآخى، إذ يكون المحضن عندئذ ناقصًا أو ملوثًا أو مكشوفًا لتأثيرات المحيط، ويغدو الإبداع مجرد فلتة من عبقرى عصره الألم، أو مجرد صدفة ورمية قدرية من غير رام تأتى كرحمة ربانية لقوم لم يرحموا أنفسهم ولم يؤهلوها ولم يحرثوا أرضهم واستبد بهم الكسل حتى أنامهم إلى الضحى، لكن

بينهم رضيع وعجوز يلتفت الله لهما، ويعجز الإبداع فى ظل هذا الانكشاف عن أن يكون زخمًا متدفقًا، أو سيلاً متواصلاً له جريان، إنما هو التنقيط، نقطة بعد نقطة، ومثل هذا الوصف المجفل، الذى تشهد له ساحات ابتليت به وسادها فتور الهمم واستهلاك الرصيد القديم، يوجب على التربية الدعوية أن تجعل قضية المنهجية فى أول الأولويات، وأن تبت ثلاثًا بطلاق الأنماط التلقينية، وأن تتوب من تقديس اجتهاد السابقين، ومن قلة الممارسة الشورية، وإذا نجحت الدعوة فى كل قطر فى تربية ألف فقط من بين ألوف منتسبيها يتقنون الممارسة المنهجية فى صناعة الرأى والقرار فى المواقف، ويعرفون التخطيط المرحلى والإستراتيجى ولوازمهما، فإن الدعوة تكون قد اقتربت من النجاح والتمكين، والألف إنما يتوزعون فى أرجاء الساحة يتقاسمون أنواع الواجبات، كلٌّ على ثغرة، أو كل عدد منهم على ثغرة، وهم النواة، ويقودون عشرات ألوف غيرهم يدورون فى المدارات المتتالية والهالات المحيطة المتناقصة الإشعاع، ومن الجميع تتكون الكتلة التنفيذية، لكنه تنفيذ صبور، يسير على مهل لا يتعجل، ولا يتهور، ولا يشتط، ولا يجازف، لأنه منهجى الهوية والجذر، حضارى التوجه، شمولى الأداء، وكفى.

وقارن بمقابل هذا مجاميع من الدعاة ما زالوا يبشرون بعبقرية قائد ملهم يمكنه أن يلى الأمر ويكون الساد لكل الثغرات، وأن يدلى بالرأى الصواب فى كل المشكلات، ولا يرون ضرورة لشورى، ولا لمؤسسات تنظيمية، وإنما فى مناقب القائد كفاية، والقيادة الجماعية عندهم مجرد أمر محمود مفيد، لا يرقى إلى درجة الحتم والفرض وبخاصة فى ظل ظروف أمنية فيها صعوبة، وعلى الطاقات العديدة المتنوعة أن تنتظر أمر القائد، وأن تبادر مبادرة فردية، من غير نواظم أو حدود منهجية، ويمكنك أن تتفرس فى وضع كهذا كيف ستخبو فيه القابليات، ويزدرى التابع دوره ويتنازل عنه، ويتوارى الواثق الطموح لئلا يتهم بتطاول، ويتواكل من كان متوكلا، وتكون النتيجة التراجع، أو المراوحة فى المكان، إذ الفرص تستنهض، وإنما أدى إلى ذلك نمط أخطأ فهم صفات النفوس، ولم يستنطق التاريخ، ولم يخبر أسرار حركة الحياة كيف يكون.

* **وينتقل د. التكريتى إلى سرد أخبار العلم الأوربى،** ويبين أن انطلاقته الأولى اعتمدت على ترجمة كتب العلماء المسلمين أو الكتب الإغريقية التى ترجمها المسلمون إلى العربية، وكان سقوط الأندلس بخاصة ووقوع المكتبات العربية الأندلسية بيد الغرب هو العامل الأهم فى

ذلك، فترجموا كتب الخوارزمى وابن سينا وابن الهيثم، حتى إن مترجمًا واحدًا اسمه جيرارد ترجم سبعين كتابًا فى العلوم والمعارف، فتلقف كل ذلك اثنان من أساتذة أكسفورد هما كروسيتست وتلميذه روجر بيكون الذى أعجب بنظريات ابن الهيثم فى الضوء وبمنهجه العلمى الذى ربط الفيزياء بالرياضيات بالفلسفة، وأصبح هذا المنهج هو المنهج السائد فى أوربا، ودخل علماء آخرون فى خط الانتفاع من هذه الثروة الإسلامية، وأكمل كبلر المهمة، وبدأت الثورة العلمية الأوربية والنهضة الصناعية، وطور كوبرنيكوس تلك البداية استنادًا إلى دراسته لكتب البتانى والزرقانى والبوزجانى والفرغانى، وحصلت ردة فعل الكنيسة تجاه حقائق تفضح أوهامها، وحصلت مأساة جاليليو صاحب التلسكوب، إلى أن ظهر نيوتن وقام بتجارب لا تقبل الدحض واستخدم الرياضيات، واستمرت الثورة العلمية تتصاعد بوتيرة متسارعة، وكان نيوتن يؤمن بالله، وأنه هو تعالى خالق هذا النظام الكونى الجميل، وقد كان كتاب المبادئ لنيوتن هو أهمّ الكتب العلمية على الإطلاق وأكثرها أثرًا فى مسيرة العلم الحديث حتى يومنا هذا، وشرح فيه قوانين الحركة والجاذبية وميكانيكية السوائل والغازات.

* **أقول:** وفى تحليل هذه المرحلة من تطور العلم دروس منهجية عديدة يمكن أن نقترحها على التربية الدعوية.

* **منها:** بيان أهمية الترجمة وتوفر المادة العلمية الأساسية التى تنطلق منها النهضات، ويصح هذا فى اتجاه ترجمة كل موضوع نافع لدى أمم الأرض وعند الغرب بخاصة لنستفيد منه، كما يصح فى اتجاه ترجمة الإنتاج العربى الدعوى إلى لغات المسلمين الأخرى، مثل التركية والفارسية والأوربية والملايوية، لأن العمل الإسلامى العالمى يجب أن يكون متجانسًا متناسقًا متوازنًا فى أجنحته الكثيرة ومثاباته، وقد حصل تقدم فى الفكر الدعوى العربى مازالت الأجنحة الأعجمية أقصر عنه، وعلاج ذلك الترجمة، ليست مثل فوضى الترجمة الحالية التى غالبًا ما تتم لأغراض تجارية، وبمترجمين يتصرفون فى المعنى والمبنى أحيانًا بدوافع خلافية، كما جرى فى إيران مثلاً، وإنما وفق خطة دعوية للترجمة وبمترجمين من الدعاة أنفسهم ينزلون الكلام منازله الصحيحة.

* **ومنها:** بيان أهمية الصبر والتحدى وروح التصميم على المصاولة، والاستعداد لدفع

ضريبة الفكر المتقدم، إذ يمكن أن تعترى المسلمين دهشة مما يقوله الدعاة، بل الساذجون من الدعاة قد ينكرون على ذي تجديد منهم، وهذه الأخلاق النفسية السامية هى قرينة المعانى المنهجية ومن لوازمها.

* **ومنها:** أن الإضافات تأتى مجزأة متناثرة فى عرصات مكانية عديدة، على أيدى مبدعين كثيرين، فى مساحة زمانية متوسطة ربما، لذلك تبقى محدودة الأثر، إلى أن يبرز داعية يجمع المتفرق، ويضم الموضوع إلى مثله، وينظم الاجتهادات معًا، ويتمم، ويسد النقص، ويبتكر العنوان الشامل، ويخرج بنظرية كاملة، يصوغها فى كتاب واحد بلغة؛ بليغة تغرف من العاطفة وتندى بها الجفاف، فتكون ثمة صعقة، ينتفض لها من فى الميدان، ويحصل تحول حاسم، ويكون الكتاب أو مجموعة الكتب المتكاملة من صاحب النظرية معلمًا من معالم التطور الفكرى الدعوى يفى بحاجات مرحلة قادمة، قياسًا على آثار كتاب القواعد لنيوتن.

* **ويواصل د. التكريتى كلامه** منتقلاً إلى تطور الاكتشافات الذرية فى مرحلة بطيئة استغرقت قرنين كاملين ولما تكتمل، ويشير إلى نظرية البريطانى دالتون الذرية فى سنة 1803 التى تقر بتألف المواد من ذرات، وأن ذرات العناصر المختلفة تختلف فى الخواص، وأنه لا يمكن خلق الذرات ولا تقسيمها ولا تدميرها، وأن المركبات تتكون من اتحاد ذرات العناصر المختلفة بواسطة التفاعلات الكيماوية، وفى 1811توصل الإيطالى أوفوكادرو إلى أن الأحجام المتساوية من الغازات تحت ضغط معين ودرجة حرارة معينة تحتوى على عدد متساوٍ من الذرات، وأضاف الإسكتلندى ماكسويل والنمساوى بولتزمان فكرة تألف الغازات من ذرات صلبة تتصادم فيما بينها وتنتج الحرارة، وبذلك فهى تخضع لقوانين نيوتن. وفى عام 1897م اكتشف الإنجليزى ثومبسون الإلكترون وعيّن شحنته السالبة، ثم اكتشف الفرنسى بكريل أن بعض العناصر مثل اليورانيوم يشع إشعاعًا طبيعيًا، وطورت مدام كورى البولندية الأصل الفرنسية الإقامة المعلومات عن هذه المواد المشعة، وثبت بعدئذ أن هذا الإشعاع على ثلاثة أنواع: **ألفا**، وهى نواة الهليوم، أى موجبة. **وبيتا**، وهى الإلكترونات السالبة. **وغاما:** وهى أشعة كهرومغناطيسية ذات طاقة عالية، أى هى موجات.

* ودخل القرن العشرين حيث جاء النيوزيلندى البريطانى الإقامة رذرفورد ووجه أشعة ألفا الموجبة إلى صفيحة ذهبية، فوجد أن بعضها ينحرف وواحد من ثمانية آلاف منها يرتد فى الاتجاه المعاكس، وبذلك استنتج وجود نواة موجبة للذرة قطرها صغير جدًّا بالنسبة إلى حجم الذرة، وعملية التنافر بين موجبين هى التى تجعل الدقيقة الألفية ترتد، وما انحرف منها فهو ما يمر قريبًا من النواة، واكتشف رذرفورد أن الإلكترونات تدور فى مدار حول هذه النواة، ثم انتقل الدانمركى نيلزبور ليعمل فى صحبة رذرفورد، واكتشف أنها مدارات عديدة لإلكترونات على مستويات وليس مدارًا واحدًا، وأنه إذا امتص الإلكترون كمًّا من الطاقة الضوئية فإنه يقفز إلى مدار أعلى، وإذا بعث كمًّا من الطاقة الضوئية فإنه يقفز إلى مدار أدنى، وقد أصبح بور من أعمدة فيزياء الكم، ويرى البعض أن تأثيره فى الفيزياء أكبر من أى عالم آخر، وقد انضم بعدئذ إلى الفريق الذى صنع القنبلة الذرية الأمريكية.

واستمرت الاكتشافات العلمية على هذه الوتيرة، ووجد العلماء أن خواص العناصر تعتمد على عدد البروتونات، وهو ما يسمى بالعدد الذرى، وعينوا الأعداد الذرية لجميع العناصر. وفى عام 1928 اكتشف النمساوى باولى أن المدار الأول للإلكترونات لا يستوعب غير إلكترونين فقط، والمدار الثانى ثمانية، والثالث ثمانية عشر، وقاد ذلك إلى أن العناصر التى يبقى من عدد إلكتروناتها إلكترون واحد يدور فى المدار الخارجى مثل الصوديوم تكون عناصر مستعدة لأن تعطى إلكترونها اليتيم إلى غيرها من أجل أن تستقر، وأن العناصر التى ينقص عدد إلكترونات مدارها الخارجى إلكترونا واحدًا عما هو مفترض مثل الكلور تكون مستعدة لاستقبال إلكترون من غيرها لتستقر، وهكذا تتحد ذرتان لتكوين جزىء كلوريد الصوديوم، وهو ملح الطعام، وقد يكون الناقص أو الزائد من الإلكترونات اثنان وليس واحدًا فقط، وهذا ما يوحد ذرتى الأوكسجين والهيدروجين لتكوين جزىء الماء، وهكذا يتكون ملعب عجيب خلال عمليات التبادل هذه، وفى نفس الوقت تمتص الإلكترونات مقدارًا من الطاقة فى شكل فوتونات، فتقفز من مدار إلى مدار بحسب كمية الفوتونات، وربما يتخلص إلكترون من أسر الذرة، وما إضاءة مصباح عنصر التنكستين إلا عبارة عن فقد الإلكترونات لكمية الفوتونات التى امتصتها، فتتنزل إلى مدار أدنى، ثم تأخذ فوتونات أخرى، ثم تفقدها، فى عملية مستمرة، وكل العناصر والمواد تقوم بهذه اللعبة، لكن لا ترى

آثارها إلا فى درجات الحرارة العالية، ولا تتوقف اللعبة إلا عند درجة 273 تحت الصفر، وهى درجة لا يمكن الوصول إليها.

* **أقول:** هذه السياحة العلمية لم تنته بعد، وسيبدأ الكلام عن الضوء وأسراره، إنما أستحسن أن نتوقف قليلاً لرصد ما يمكن من منهجية صحيحة خلف هذا النجاح العلمى الضخم، وبعض حديث عن ظواهر مصاحبة للنجاح، وتحليل لطبيعة المخلوقات.

دروس فى المنهجية وحركة الحياة يوحيها تاريخ العلم

* **فمن ذلك:** أن العلم لا يحده إقليم ولا يحتكره قوم، إنما هو عالمى عابر للقارات، فقد رأينا البريطانى والفرنسى والألمانى والنمساوى والدنماركى والإيطالى والنيوزيلاندى، وقد اجتمعت عقولهم جميعًا لاكتشاف المجهول، وفى هذا ما يعظ الدعاة أن لا تستبد بهم عصبية، وأن ينتظروا الإبداع الدعوى من كل أجزاء الدعوة فى امتدادها العالمى، وأن صفة العالمية التى ابتنت عليها الدعوة ابتداء، والامتداد العالمى الفعلى الذى وصلت إليه الدعوة بحمد الله، هما عنصران إيجابيان يرجحان الميزان لصالحنا فى الميدان التنافسى، ولابد أن نستثمر أكثر وأكثر هذا الاستعداد لمشاركة الجميع فى البناء والعطاء والإنجاز، والأمر أكبر من أن تحققه ارتباطات قيادية فقط، بل حياة اجتماعية منسابة وتعاون أعرض بين جميع الطبقات التنفيذية وعناصر الاختصاص والعناصر التى تجمعها صفة مشتركة، حيث إن تبادل الخبرات الذى يصاحب ذلك، وعدوى الحماسة، والتأثيرات النفسية الإيجابية الناتجة من التزاور والاختلاط والتشاور كلها ستساعد على الوصول إلى أجزاء متناغمة من الإبداع الذى يمكن أن يتكامل فى سياق واحد ويوظف لخدمة اليوميات الدعوية مثلما يؤدى دوره فى خدمة الأهداف الإستراتيجية.

* **ومن ذلك:** أن التقدم إنما حصل فى البيئات المتقدمة العلمية الراقية، ولم يحصل فى البلاد التى تفتقد ذلك، وفى هذا ما يجعلنا ننتظر الإبداع الدعوى أيضًا من البيئات المتقدمة ذاتها ومن أمثالها، سواء فى البلاد الإسلامية التى تطورت مدنيًّا بسبب غناها وانفتاحها، ويقوم بذلك جسم الدعوة كله فى ذلك البلد، فيقوم بدور قيادى فى الفكر والتخطيط والتربية والتنفيذ، هو مؤهل له، وغيره غير مؤهل، أو تقوم به الجاليات الإسلامية فى الغرب عامة، ويكون الداعية

الألمعى الذى تحفزه معطيات البيئة المتقدمة ثقافيًّا ومعرفيًّا صاحب دور قيادى عالمى فى الفكر والتخطيط والرصد واكتشاف السياسات العليا وأنماط العمل لدى خصوم الإسلام. وهذا التوقع لا ينفى أن يكون الدعاة فى البلاد الفقيرة المتأخرة أصحاب عطاء فكرى ومشاركة فى الإبداع أيضًا، لأن اللمعة العقلية قد لا تحتاج آلة ولا مصادر احتياجًا حتميًّا، ورب فقير فى واحة يكتشف من أسرار الإيمان ما يبشر به غيره فى الآفاق، ونحن نعرف من دعاة صحراء موريتانيا وقرى اليمن وجبال إريتريا من تتوقد عقولهم وقلوبهم معًا بنور الإيمان وشرارات الفكر، إذ بلادهم هى نموذج التخلف والبدائية، لكن هذا لا ينفى أن حجم العطاء فى البيئة الراقية يكون أوفر وأدوم، بحيث إن أقطارًا مثل بلاد الخليج يمكنها أن تؤدى دورًا رائدًا عبر المنهجية واستثمار البيئة والانفتاح، وبلادًا صغيرة مثل ماليزيا يمكنها أن تؤدى دورًا قياديًّا بين جيرانها، بل ولكل الأمة، بسبب تقدمها المدنى.

* **ومنها:** أن هذا العطاء لم تحركه البيئة المتقدمة فقط، ولا المنهجية فى وصفها الطرائقى فقط، وإنما أنضجته الجوانب المادية والآلية فى هذه المنهجية أيضًا، فقد حدث أكثر التقدم فى الجامعات العريقة ومعاهد البحث، حيث الأجهزة المعقدة، والمكتبات، والمال الكثير المرصود للبحث، والتزاور بين العلماء، والتشاور من خلال مؤتمرات، والدوريات العلمية، ووسائل الإيضاح، ووجود أقنية مفتوحة مع المجتمع تضمن تجاوبه ودفعه المعنوى، والاستعانة بالشركات والمعامل الإنتاجية حيث التجريب على نطاق واسع أبعد من المختبر، مع الإسناد المالى، فى آليات أخرى بعضها يرفد بعضًا لتكوين بنية تحتية مؤهلة لخدمة البحوث، والدعوة إن أرادت الإبداع من أذكياء دعاتها فى أمور السياسة والتخطيط فإن البنية التحتية تكون واجبة، من وجود مركز بحوث، ومكتبة متقدمة فيها أنواع المصادر، وأرشيف جامع، وصحف مصورة فى ديسكات، ووسائل إيضاح، ومال مرصود يكفى للسفر وعقد الندوات والمؤتمرات واستقدام الخبراء، فى أمور أخرى مماثلة، ولا يصح أن ندع الدعاة فى حرج ويركضون وراء المصادر والوثائق عند آخرين قد يكون فيهم المنافس والبخيل، وإذا اعترض قطر فقير على مثل هذا الندب الذى يحرجه ولا يجد لتحقيق هذه الأمنيات سبيلاً، فجوابه ليس غير جواب واعظ لخلى كف، فيأمره أن يسبق أهل الدثور بذكر وتسبيح، وحسرات جزء الدعوة الفقيرة لا تمنع المقتدر أن يبادر إلى تكميل منهجيته، ثم يدعو للفقير أن يغنيه الله من

فضله، أو يفيض عليه مما أغناه الله، وكل ميسر لما خلق له، والبركة تجعل القليل كثيرًا، والمرتجل منهجيًّا.

* ويلاحظ أن الحكومات فى كل هذه البلاد التى ساهمت فى تطور العلم هى حكومات تعدل بين رعيتها، وتحفظ حقوقهم السياسية والإنسانية، والقانون فيها هو الفاصل، مما يعنى أن البنية السياسية تفعل فعل التقدم المدنى وتضاعف آثار البنية الأساسية، وما تشهده أكثر بلاد المسلمين اليوم من ضعف الإبداع إنما مرده فى جزء منه إلى الاستبداد وهدر حقوق الإنسان وما يتبعها من تمجيد الحاكم وتمكين النفعيين وكبت الأحرار وأصحاب الرأى المستقل، والتخذيل العام الذى ينتج عن الاستبداد وتقعد به الهمم يصيب الدعاة أيضًا، إذ هم جزء من المجتمع، والنفس البشرية تتأثر إذا طال مدى الظلم ويستحكم اليأس، كما أن لهذه الحقيقة بعض انعكاس أيضًا إذا ضعفت الروح الشورية داخل الجماعة ولم تتميز الحقوق والواجبات ولم تنضبط بنظام أو ترسخ بعرف، إذ يزهد الدعاة فى أن يضيفوا للمسيرة جديدًا وتذوى روح الابتكار، وبين الحالتين تماثل لا يحتاج مزيد تذليل.

* **ومنها:** أن الفلسفة العلمانية المعادية للدين سكتت وتوارت فى هذه المرحلة من الاكتشافات العلمية، إلا القليل، إذ كان مع كل كشف جديد يثور تساؤل عن سر خفى، ومال العلماء إلى الإيمان بوجود خالق مدبر، إذ كانت بعض قوانينهم تتعطل أمام بعض الظواهر، وهو ما سنراه فى المرحلة الأخرى أجلى وأوضح، مرحلة فيزياء الكم، مما يدل على أن الإلحاح فى التفسير العلمانى كان فى الأول مغرضًا منحازًا استغل نشوة اعترت النفوس فى عهد تصاعد الاكتشافات العلمية الأولى فجهر بالإلحاد، ولم يكن له ما يبرره فى ذات الاكتشافات، ولم تشذ عن هذه الظاهرة إلا أمريكا، إذ بدأ الإلحاد فيها من خلال الفلسفة التجريبية لديوى فى الوقت الذى بدأ الإلحاد يتراجع فى أوربا وسبب هذا أن أمريكا كانت متخلفة فى العلم عن أوروبا، فمرت بطور المراهقة حين كانت أوربا قد استوت وتجاوزته، ولذلك عادت أمريكا الآن إلى الاعتدال والتدين، وانعكاس هذه الظاهرة على الحياة الدعوية يمكن أن يكون مماثلا، ففى العصر الذى بدأت فيه مرحلة تأسيس الدعوة كان العالم الإسلامى يتسم بالمراهقة الفكرية والتأثر بالغرب وبدعاية شيوعية تبشر العالم بعهد جديد، ولذلك انصرع الجمهور لزخم التأثير الإلحادى، ومالوا إلى تكذيب الدعاة ومقاومة الدعوة،

فلما انتشرت معلومات العلم التطبيقى أكثر عبر الجامعات والبعثات، أو حين انتشر بعض الوعى العلمى بين جمهور الناس عن طريق التليفزيون والصحافة كان ذلك سببًا من جملة أسباب فى انحسار الإلحاد، وزادته النكسة السياسية انحسارًا، لغياب الحاكم الملحاح فى العلمانية، ثم زاده سقوط الاتحاد السوفيتى توارياً، وتحولت المشكلة أمام الدعوة من مشكلة إلحاد يجد له رواجًا بين الشباب إلى مشكلة شهوات نمت أكثر من ذى قبل هى نتيجة اختلاط الأمم والتعليم العلمانى، ومشكلة الشهوات أخف دون شك، والشهوانى قد يتوب من قريب، وبعد كل سكرة إفاقة، على النطاق الفردى أو الجماعى، وفى خبر الصحوة دليل، وفى كل هذا ما يمنح الدعوة معيارًا منهجيًّا مهمًّا يرجح بإذن الله موقفها، وهو أن تساعد على نشر الوعى العلمى التطبيقى الصحيح، والمعرفة الثقافية النظيفة أيضًا، لأن ارتفاع مستوى هذا الوعى يجعل الجمهور أقرب لنا، ويمهد لتقبله الإيمان وموازين الشرع وقيادة الدعاة له، أى أن تبدأ لنا منهجية تربوية للجمهور سابقة للتربية الدعوية الداخلية التى اعتدنا الاقتصار على بحثها، إذ سيكون للعلم والكتلة المعرفية آنذاك دور يقرب أن يكون حاسمًا، وبخاصة إذا اقترنت بذلك حملة ترويج الإعجاز العلمى الإسلامى وبذل نتائجها إلى العامة وليس الاقتصار على الخاصة فقط كما هى الآن، ويزداد الحسم إذا اقترن كل ذلك بموقف سياسى واضح يلبى طموحات الشعوب الإسلامية ويقودها إلى التمرد على ضرائب التطبيع. والوصول إلى هذا الترويج للكتلة العلمية والمعرفية فن قائم بذاته يعتمد موازين الإعلام ومناهجه بخاصة، وهو ممكن للدعوة رغم صعوبته وغلاء تكاليفه، وأساسه النشر والصحافة والتليفزيون والإنترنت وإظهار علماء الدعوة وقضايا مقاربة، ويزداد تأثيرًا بتوظيف طاقات حلفاء الدعوة وعامة المسلمين وبعض المؤسسات، والإكثار من الجمعيات التخصصية، وله خطة ومنهجية مكملة لمنهجية التربية الدعوية ليس هذا مكان بحثها، وتبدأ بعدد من دور النشر الجادة التى تسيطر عليها روح دعوية لا تجارية، وبمجلة علمية أسبوعية عالية المستوى تربط العلم بالإيمان أو تعرض الإنجاز بحياد، وبمحطة فضائية ثقافية علمية توظف العلم والمعرفة لقضية الإيمان، ثم يكون التفريع وتكون الإضافة، وكثير من الجهود الحكومية يمكن أن تسير فى هذا التوجه رغم ما يشوبها من شوائب، وهناك نقاط التقاء مع الجامعات يمكن أن تستثمر لصالح هذه الحملة المعرفية، وتكاد بعض أهداف وزارات التربية

أيضًا أن تلتقى مع هذه، لولا أنها وزارات تتعمد الزيغ والمخالفة، وما زالت محكومة بالنظرات المنحازة التى حكمت الفلسفة وولى عهدها فى الغرب، لكن المنحى التقليدى أعطاها فرصة الاستمرار فى بلاد العالم الإسلامى، أو لعل دورًا تخريبيًّا مفروضًا عليها تمارسه ويدعوها إلى تشويه التربية، وأما وزراء الأوقاف فإن أمثلهم وأقربهم إلى العفاف يمشى على استحياء ولا يستطيع المشاركة فى الحملة حتى ولو تمنى، ولا يبعد أن يكمن الصواب فى الزهد بجهود وزارات التربية والأوقاف، إذ إن محنتها فى العالم الإسلامى فرع من محنة الحكم السلطوى الأسير لنفوذ دول الاستعمار الكبرى، إنما الخير والبركة فى عامة المسلمين، من غنى يمول، وأستاذ جامعى يقدم البرامج، ومثقف يشارك، وباحث يقتبس البرامج الغربية وينتقى أحسنها للعرض، وهؤلاء طبقة عريضة جدًّا، وما زال الإيمان عامرًا فى قلوبهم، لكنهم متفرقون لا يحسنون الاجتماع لتجويد الأداء، وهى صنعة يحسنها الدعاة وبإمكانهم أن يقودوا هذه الطاقات المعطلة لتؤدى دورًا تربويًّا ممهدًا لدور التربية الدعوية، ولئن رأى البعض أن فى تحميل الدعاة هذا العبء هو إرهاق لهم، بل إعنات ومطالبة بأمر هو أخو المستحيل ويكون فى عداد المعجزات فإن اعتراضه يتجه لو كان كل قطر يطالب بمثل ذلك، إنما هو عطاء عالمى نعنيه، قد تتعدد مراكزه تبعًا لتقاسم الأدوار، لكن الجهد لا يتكرر فيه، وتكون خبراته وفوائده عامة تنتفع منها كل الأقطار والجاليات الإسلامية، وهو بهذا الوصف فى نطاق الممكن إن شاء الله، والطاقات موجودة، ولكنها مبعثرة، وتحتاج لمسة حنان تخطيطية فحسب، ثم كد ذهن، وزيادة توكل، وتفريغ مجموعة من مبدعى الدعاة قد لا تكون كبيرة ترعى هذه الحملة، بل حتى الكتب الموضوعية يوجد الكثير الجاهز منها لدى المؤلفين ولا يجدون له ناشرًا، لغلبة الموازين التجارية فى النشر، أو نشر بعضها محليًّا فى بعض الأقطار على نطاق محدود، ومن الممكن إعادة نشره ضمن هذه الحملة ليبلغ الآفاق البعيدة، كمثل سلسلة الألف كتاب فى الخمسينات التى نشرت كطبعات شعبية رخيصة، وكنت فى شبابى قد حزت أكثر من عشرين كتاب مترجم منها فى فيزياء الذرة فقط على نمط كتاب د. التكريتى حبات المعرفة هذا، قرأتها عشرين مرة، وركزت فى قلبى حماسة علمية ليست عواطفى الذرية اليوم إلا الوشل المتبقى منها، وذهبت الآلام وتقلبات الأيام بمعظمها. والذى أظنه أن الجهد الذى تحتاجه هذه الحملة ليس أكثر من جهد تقدمه بعض الأقطار لكليات دراسية ترعاها، ولكن الذى سوغ

المدارس لهم ولم يسوغ مثل هذه الحملة العلمية ليس سوى سهولة رؤية آثار المدارس وتحسس أهميتها بمقابل بعض صعوبة فى تصور أهمية هذه التربية العامة للناس وقيمتها المنهجية، وكأن لجان التربية فى الأقطار لم تستشعر تمامًا وجوب وجود تربية إسلامية تسبق التربية الدعوية الخاصة وتمهد لها وتقوم بدور تهيئة قطاع عريض من المسلمين السائبين لتلقى التربية الخاصة، بينما رسخت أعراف فى الجماعة توجب وجود ما هو قريب من ذلك مما نسميه: عملية نشر الدعوة، وهى أنواع من النشاط موجهة للجمهور الإسلامى أوسع من أن تكون تربية خاصة، فهذا من هذا، ولا داعى للغرابة أبدًا، وستكون هذه الحملة العلمية العامة شيئًا أوسع من عملية نشر الدعوة، وهى وإن تأتى متزامنة معها ومتداخلة معها أيضًا فى بعض مفرداتها إلا أنه يفترض أن توجه الحملة العلمية إلى جمهور أوسع من الذين تخاطبهم عملية نشر الدعوة، وبمخاطبة أقل صراحة، وتكون تمهيدًا لها، أى أن العملية التربوية تتنامى على ثلاثة مستويات، ولكل منها منهجية معينة: مستوى نشر العلوم والوعى المعرفى ممزوجًا بإشارات التوحيد وموازين الإيمان. ومستوى نشر الدعوة، وهو بث وعى بضرورة العمل الجماعى وبث الفكر الإسلامى الشامل والإشارة التخصيصية إلى وجود الجماعة وطريقتها المميزة وطلب النصرة من الناس والانضمام إلى هذه الجماعة. ومستوى التربية الدعوية لمن انتظم،وفيها تركيز لمعانى الإيمان والأخلاق، وتلقين لأحكام الشرع، وتوعية سياسية، وتمكين الدعاة من الإبداع، وتقود هذه إلى مستوى رابع أيضًا فيه الإعداد القيادى والتطوير التخصصى، وله منهجية أخرى تناولتها رسالة «معًا نتطور» ودراسات أخرى، وما أظن فى كل هذه السلسلة من أمر صعب سوى المحطة الفضائية التى افترضناها، ومع ذلك فإن اشتراك جميع الأقطار فيها يجعل نفقتها الكبيرة فى نطاق الممكن، ولا شك أن صعوبتها هى صعوبة أيامها الأولى فقط، إذ ستقوم الإعلانات فيما بعد بتغطية جل مصارفها، وبخاصة الإعلانات العلمية عن الكمبيوتر ولوزامه، ومعدات المختبرات وأمثال ذلك، وقد تساهم مؤسسات عالمية وجامعات غربية فى إهداء البرامج والمواد الأولية الوثائقية التى يستلزمها إعداد البرامج مجانًا، وهى تحتاج نفرًا أهل تصميم عال، وأفق واسع، وثقة بالنفس، ثم الأمر من بعد سهل بإذن الله، وأظن أن وضع دراسة تفصيلية لآفاق هذه الحملة العلمية واقتراح حلول عملية لمشاكلها ومصاعبها ستكون من أرقى أنواع الإبداع الذى ننتظره من الدعاة،

ليبس أبدع منه سوى تجرد النفر الرواد الذين سيبدءون العمل وتصديهم لهذا الأمر الجبار. وحماية لهذه الحملة ومحطتها الفضائية: يجب أن تبتعد عن كل حديث سياسى وإشارة أمنية وإشارة لجماعة معينة، إنما هى تراد لتوعية علمية بحتة، وربط للعلم بالتوحيد، وتذكير بالموازين الإسلامية والتراث الحضارى لأمة الإسلام، وحفظ الشخصية الإسلامية حية، وإظهار وشهر العلماء المسلمين والمبدعين والترويج لهم ولأسمائهم، وأمثال ذلك مما سيدخل كل بيت ويغرس فى لاشعور كل شاب مسلم الاعتداد بنفسه ودينه وأمته، ويدفع به نحو المعالى والنبل والإيجابية والحرص على إعادة العز الإسلامى واستئناف جولة حضارية إسلامية جديدة، ومثل هذه الأحاسيس والمعانى هى الطريق المنهجى الصحيح لمقاومة الإثارة الغرائزية الشهوانية التى تعربد بها المحطات الفضائية المائة التى تصب غضبها على ذرارى المسلمين اليوم، تريد تجفيف منابع الدعوة، والله غالب على أمره، ويمكرون ويمكر الله، ويعلم الله دعاته منهجية المكر الدفاعى ومنهجية العلم الإبداعى.

*** ومن دروس المنهجية المستفادة من استعراض تطور اكتشاف مكونات الذرة:** أن العلم ينعكس فى صورة قوة، تحسم الصراع الحربى أو الاقتصادى لصالح الدولة التى تستعمله، والمثال هنا واضح فى القنبلة الذرية التى صنعها نفس العلماء الذين اكتشفوا مكونات الذرة فى مختبرات الجامعات، بل العلم يقوم بدور الترجيح الإستراتيجى البعيد المدى، وهو ما ذهبت إليه فراسة فرانسيز بيكون فى بريطانيا، المتوفى عام 1626م، وهو غير روجر بيكون تلميذ كروسيتست، المتوفى عام 1292م، فرعى العلم لما صار رئيسا للوزراء، فى حملة قوية مركزة، فأحدث نهضة علمية أدت إلى نهضة صناعية عظيمة اقترنت بأسواق فتحتها السياسة الاستعمارية، فاعتلت بريطانيا على عرش العالم مائتى سنة، وأتيح للفنان المعتز بالإنجازات أن ينحت تمثال فكتوريا وفى يدها الكرة الأرضية تقلبها بين أصابعها وتتمتع بذلك، وكل سائح يشاهد هذا التمثال أمام قصر بكنجهام الملكى، ثم كل بريطانى اليوم يعيش على فضل صدقات بيكون وإحسانه، وهذا المثل البيكونى هو صرح دليل على أهمية التخطيط والمنهجية والعملية القيادية، وأن هذه الثلاث إذا اجتمعت أنتجت المعجزة، وفى كتابى «حركة الحياة» مزيد تعقيب على هذه القابلية، ثم نحن مازلنا نعيش اليوم أثر خطة حرب النجوم التى وضعت أمريكا فى مركز الصدارة العالمية مثلما أرهقت الاتحاد السوفييتى

لما حاول اللحاق بها فكان ذلك أحد أسباب انهياره، وحرب النجوم هى عنوان عريض لمنهجية مزدوجة مضاعفة الازدواج، فيها منهجية علمية بحتة، منهجية سياسية، ومنهجية أمينة، منهجية إعلامية، ومنهجية فى التضليل والحرب النفسية أيضًا، إذ إنها ما كانت فى الحقيقة بالحجم الذى صورت فيه، بل أصغر جدًا، ولكن ضخمت إعلاميًا لاستدراج السوفييت لتخصيص مزيد مال لمشروع مماثل أرهق الميزانية واستنفذها، فى وقت كان الجهاد الأفغانى يقوم بدور مماثل، فانحسر الإنتاج الزراعى، وغابت الحنطة، فبذلتها أمريكا للشعوب السوفييتية، فركع الناس معنويًا وأذعنوا لليد العليا المتصدقة، فاضطر النظام أن يركع أيضًا، ثم اضطرت الفلسفة الماركسية كلها على امتدادها العالمى أن تتنصل من أصلها وتنكر فضلها، وهذا هو أجلى دروس المنهجية لقوم يفقهون، والقيادة الدعوية مدعوة لإحداث مثل هذه النقلة الحاسمة فى المعادلة الدائرة، باعتماد العلم والتنويع المعرفى كروافد أساسية فى خطة التربية الدعوية خلال مراحلها الأربع التى شرحناها آنفًا، من أجل وضع الكتلة الدعوية العالمية فى مركز تفوق يقود إلى سيطرة، ونحن قوم سلميون إلا ما يكون من جهاد ندفع به عن بعض بلادنا العدوان، سَلِسون لَيِّنون، لذلك لا يكون فى منهجنا قنابل ذرية، بل ولا خلبية فارغة، إنما نستخدم حقائق العلم الأخرى، بخاصة فى مجال الكمبيوتر والبث الفضائى وآليات النشر والتأثير الإعلام والتعليمى وما وازى ذلك من الاستخدامات السلمية للتطور العلمى، وبذلك نضع الدعوة فى مركز القوة والنفوذ فى زمن لا مكان فيه لضعيف وساذج ودرويش.

* **وملاحظة أخرى :** فى هذا السياق نستلها من طبيعة الإلكترونات القافزة من مداراتها إذا لم تكن مستقرة، فقياسًا على ذلك واستنباطًا نستطيع أن نقول: إن المخلوقات جميعًا تسلك سلوكًا متشابهًا، وأن بعض العلاقات التنظيمية والظواهر التربوية فى الحياة الإنسانية إنما هى صدى لأخلاق الإلكترون، وليس اللغز الإنسانى بأقل من لغز الإلكترون، فبعض المنتسبين إلى الدعوة قد يقفزون ويهربون من الارتباط، ويطيب لهم الشرود، وتكون أيامهم قلقة، وما ذاك إلا لأنهم لم يتماسكوا جيدًا مع العناصر الأخرى بأواصر الأخوة والفهم المشترك والوحدة النفسية المعنوية التى ترسخ التأثير العاطفى، والمتهم الأول فى ذلك هى الخطة التربوية لا العناصر القافزة، وقد ترجع بهم توبة فتكون نقطة مضيئة فى حياتهم كإضاءة

التنكستون عبر عمليات إطلاق الفوتونات عند هبوط الإلكترون بعد صعوده. وأما ظاهر الإلكترون المنفرد فى ذرة الهيدروجين واتحاده مع مثيل له لتكوين جزء هيدروجين راسخ، ففيها دليل على وجود بشر أقوياء يؤدون دورًا قياديًّا بالنسبة للآخرين عن طريق الانتظام معًا، لأن هذين الإلكترونين المتمتعين بقوة الشخصية طارا فوقعا على ذرة الأوكسجين فتعاونا معها التعاون الوثيق الذى هو أوثق ما يكون فصار الماء الذى هو قائد الحياة وأصل كل شىء حى، وهذه الإيحاءات المستلة من الطبيعة الذرية وغيرها هى عامل تحريك للعقل يدعك أقرب إلى اكتشاف دقائق المنهجية الدعوية فى التربية والتنظيم وتمنحك أمنًا أنك على الطريق الصحيح ما دمت تجد شواهد لمذاهبك فى أخلاق الخلق.

* **ومرة أخرى** يعترض بعض الدعاة على تمثيل لا يرون الواقعية فيه، إذ هناك اختلاف بين حالة دعوة مستضعفة، وحالة دولة لها الإمكانيات، ويستغربون أن تكون منهجية التنمية العلمية قابلة التطبيق من دعاة تحاصرهم المعوقات، ويرون ذلك مجازًا بحتًا.

وما من أضغاث أحلام بحمد الله، إنما التشاؤم عند أصحاب التقليد فقط، الذين يظنون أننا ندعوهم إلى بناء مفاعلات ذرية أو أن يرسلوا قابيل أخو هابيل إلى الفضاء ليكتشفوا أسرار المجرات.

إذن أين الإبداع فى ابتكار منفذ علمى يناسب الطاقة الدعوية المحدودة؟ نحن نخاطب أهل الإبداع والاجتهاد، لا أهل الحرفية النمطية التقليدية.

هناك فى صغار العلم ورخيصه تكمن الفرص.

الجواب على اقتراحنا لا يكون من منهزم ضيق النفس يلوى رجلا على رجل ويقول: لا إنما يكون من مؤتمر من علماء الدعاة يفركون عقولهم لاكتشاف البدائل والمخارج بما لا يولد العنت والإرهاق، بل مؤتمرات متلاحقة، حتى يتضح الدرب.

ولكى يكون الكلام مفهومًا فإنى مضطر للدخول فى شرح تجربة إنسانية فريدة كان فيها الالتفاف على المصاعب، والإصرار على التحدى، واكتشاف البدائل التى تتيح الموقف المكافئ، عبر إستراتيجية بعيدة المدى.

هى تجربة الاتحاد السويسرى.

قبل أربعة قرون، وبعد معارك انتصر فيها السويسريون على جيوش النمسا، عاونوا البابا فى إيطاليا ضد ملك فرنسا الغازى لها، وانتصروا عام 1513م، فى معركة ميلانو، ولكن ملك فرنسا عاود الهجوم عام 1515م واحتل ميلانو وهزمهم، فقرر السويسريون انتهاج سياسة الحياد، وارتضوها لأنفسهم منذ ذلك اليوم، وقلصوا حجم جيشهم، والتزموا الحياد كسياسة دائمة.

ولكن الزمن كان زمن النهضة العلمية والثورة الصناعية، وقادت بريطانيا هذه الثورة، ولحقت بها فرنسا وألمانيا ثم إيطاليا، وكثر الإنتاج بسبب استعمال الآلة، فكان لابد من إيجاد أسواق كبيرة لتصريف هذا الإنتاج بسبب استعمال الآلة، فكان لابد من إيجاد أسواق كبيرة لتصريف هذا الإنتاج الضخم وجمع أموال الشعوب ولتوفير مصدر مجانى لا ينضب من المواد الأولية، فكان الاستعمار والصراع بين الدول الكبير على احتلال بلدان أفريقيا وآسيا من أجل ذلك.

هنا وجد السويسريون أنفهسم فى مأزق، أنهم بحكم الحياد لا يستطيعون انتهاج سياسة استعمارية تضمن موارد الخامات والتسويق الواسع، ولذلك فإنهم إن أنتجوا نفس منتجات الدول الكبرى فإن عامل المنافسة لا يكون فى صالحهم وسيغلبون ويتحطم اقتصادهم بعد حين.

ثم تأملوا فوجدوا أنهم فى مأزق آخر: أن دولتهم لا تطل على بحر، بل هى مغلقة، وتحيط بها جبال عالية، وذلك يعنى انتفاء إمكانية الشحن البحرى الرخيص، وأن إنتاج الأشياء الثقيلة سيضاعف عليهم أجور النقل، فتنتفى مرة ثانية إمكانية المنافسة فى الأسعار، فوق ما فى النقل البرى من تعقيد سياسى، وأن بإمكان الدول المجاورة حصار سويسرا إذا كان ذلك ضروريًّا لحماية اقتصاد الدول الاستعمارية.

إذن ما العمل، وكيف المخرج؟

هنا كان الإبداع والقفز على المصاعب واستثمار ظاهرة «رب ضارة نافعة». عبر مؤتمرات، ربما، أو عمل مجالس تخطيط، توصل السويسريون إلى حل ذى شعبتين، وأضافت له الأيام ثالثًا.

رأوا أولاً أن الدول الاستعمارية تنتج الإنتاج الثقيل، والإنتاج الاستهلاكى الواسع، فاختاروا الصناعات الخفيفة والإنتاج للخاصة، مما يخف حمله، ويغلو ثمنه، وتحتاجه حتى الدول الاستعمارية نفسها، وهكذا ازدهرت صناعة الساعات بشكل خاص، والعدسات والنظارات وإطاراتها، وجلى الأحجار الثمينة وصياغتها فى حلى، وتصفية الذهب وضمانه من الغش، والأقلام، والمنسوجات الراقية المستوى، وأمثال ذلك، وتخصصوا فى هذه المجالات.

ثم رأوا ثانيًا أن حالة الحياد تعنى الاستقرار والأمن الدائم، وهذا شرط مهم لحركة المال، فابتكروا التوسع فى إنشاء البنوك ومنحوا العملاء ضمان السرية التامة لما يودعون، فاجتمعت عندهم أموال الأثرياء من أوربا وكل العالم، وأموال الحكام السارقين للأموال العامة، وأموال المافيا، فتوسعوا فى الائتمان المصرفى وإقراض معامل الدول الاستعمارية وتحصيل فارق الربا، أى أنهم اشتغلوا بأموال غيرهم، حتى صارت سويسرا أغنى الأغنياء.

ثم مع الأيام وجد السويسريون أنفسهم أنهم لا يخصصون ثلث أو نصف ميزانياتهم لتكوين جيش وشراء أسلحة، أو معظم ميزانياتهم لخوض حروب، بل كان المال المخصص لذلك يذهب لبناء البلد وتحسين البنية الأساسية وتحقيق معيشة الرفاه للشعب، وكان المزيد من السواعد يعمل فى ذلك بدل حمل البندقية، فازدهرت سويسرا، لصغر جيشها، وهى حالة شبيهة لما حصل لألمانيا واليابان حين ازدهر اقتصادهما بعد الحرب العالمية الثانية لما منعتا من تكوين جيوش، فتحول الرصيد العسكرى إلى البناء السلمى، فكان التفوق الحالى للدولتين، وقد واكب الازدهار السويسرى تقدم وسائل المواصلات، فصارت سويسرا مكان السياحة الأول فى العالم، واشترى الأثرياء فيها قصورًا، بسبب أمنها، وصارت مكانًا للمؤتمرات والمفاوضات ومراكز المنظمات، وانفتح مصدر ثالث للمال بعد المصدرين الأولين.

وكل ذلك إنما هو عطاء المنهجية والتخطيط والتفكير السليم.

ويح أمه من متفنن فى إغضابنا هذا الداعية حيث يتململ مرة أخرى ويقول: تريدنا هكذا أهل ربا ونأكل صدقات السائحين؟

وما ذاك عنينا يا أخى، وكفاك إلحاحًا فى التقليد والفهم الجامد، إنما نريدك أن تفكر كما فكروا، وتبتكر لدعوتك ما يليق بها على ضوء معطيات الواقع.

التمكين لا يهدى إليك هدية، ولا يأتى بتعب العضلات والكدح فقط، بل بكد العقل أيضًا، والتفتيش عن مسارب التملص من المعضلات، ولئن أغضبتنا أخرى... لنسكتن.

وتفتحت أكمام الزهرات

ويستمر د. التكريتى فى استعراضه لتطور العلم، ويتحول إلى فيزياء الضوء والتحول الحاسم فيها على يد ابن الهيثم حين أعلن خطأ علماء اليونان فى اعتقادهم أن العين ترسل أشعة إلى الأشياء التى نريد رؤيتها، بل الأشياء المرئية هى التى تعكس الأشعة على العين فتبصرها العين، وكان لدراساته عمومًا أكبر الأثر على علماء عصر النهضة الأوربية، مثل روجر بيكون وكبلر وجاليليو.

ثم اشتغل نيوتن بالضوء، وكان يعتقد أن الضوء هو دقائق صغيرة، وعارضه عالم هولندى قال بأن الضوء موجات تنتقل إلى جميع الاتجاهات، وأثبتت التجارب بعدئذ هذه الطبيعة الموجية للضوء، ثم جاء ماكسويل ووضع معادلاته الرياضية التى تصف الموجات الكهرومغناطيسية، ومنها الضوء، ولم يبق أحد يعتقد بالنظرية الجسيمية للضوء سوى مجنون أو عبقرى كما يقول البعض، وكان هذا العبقرى هو آينشتاين، ومهدت له الظاهرة الكهروضوئية، وهى أنه إذا سقط ضوء أحادى اللون، كالأحمر مثلا، على قطب معدنى، فإنه يتسبب فى اقتلاع الإلكترونات وتحريرها من ذرات المعدن، ويحدث تيار كهربائى ناتج عن سيل الإلكترونات المقتلعة، وقد لوحظ أن سرعة الإلكترونات المنطلقة لا تتغير تبعًا لشدة قوة الضوء وإنما تبعًا لطول الموجة الضوئية، أى تبعًا للون الضوء، فكان الضوء الأزرق يسبب سرعة للإلكترونات أكبر من الأحمر.

وكان بلانك قد وجد عام 1900م أن الطاقة ليست موجودة بشكل مستمر انسيابى، وإنما توجد فقط بشكل قطع صغيرة هى الأكمام، وأن كم الطاقة يتناسب مع تردد الموجة الكهرمغناطيسية، فجمع آينشتاين بين الظاهرتين هاتين وأكد أن الضوء الذى هو إشعاع كهرومغناطيسى صادر من الذرات يخضع لقانون بلانك القائل بأن الطاقة الإشعاعية موجودة على شكل قطع أو أجزاء أو أكمام صغيرة. أى أن آينشتاين أوجد تفسيرًا جديدًا للضوء يقوم على نظرية الدقائق التى قال بها نيوتن واندثرت، فالضوء حسب ما وجده

آينشتاين هو كمات «دقائق» صغيرة، وأن طاقة الدقيقة هذه يمتصها الإلكترون المنبعث من اللوح المعدنى فينطلق بسرعة تتناسب مع طاقة الكم الضوئى، وقد أطلق جلبرت لويس على هذا الكم من الطاقة الضوئية اسم الفوتون، فالضوء إذن هو عبارة عن سيل من الفوتونات، وهناك فوتونات الضوء الأحمر، وفوتونات الضوء الأزرق، وهكذا، وكل فوتون يحمل طاقة معينة محدودة وكأنه علبة طاقة، وهذه الفوتونات ذات طاقة صغيرة جدًّا، فالمصباح الكهربائى الذى قدرته مائة واط يبعث نحو 27 بليون فوتون فى الثانية الواحدة، ولم تكن نظرية آينشتاين تنفى موجية الضوء، وإنما تقول بأن الضوء هو دقائق وموجات فى الوقت نفسه. وللضوء بصمات طيفية أيضًا، فلكل عنصر من العناصر بصمات طبيعية خاصة، وبها نستطيع التعرف على العناصر المكونة لمادة ما وللنجوم والمجرات البعيدة فى السماء، وكان نيلزبور قد اكتشف أن الإلكترون إن أراد أن يغير مداره فإما أن يعطى «يبعث» طاقة، أو يأخذ طاقة، وهذه المدارات ليست متساوية البعد بعضها عن بعض، فكلما ابتعدنا عن النواة كلما كانت المستويات أقرب إلى بعضها، ويعتمد المدار الذى يستعر فيه الإلكترون على الكم الضوئى الذى يمتصه أو يبثه، ولأن الإلكترون هو جسم يدور حول النواة فإنه يخضع لقوانين نيوتن فى الحركة، وبالتالى فإن للإكترون زخمًا دائريًّا يساوى حاصل ضرب زخمه الخطى فى نصف قطر المدار، والزخم الخطى هو حاصل ضرب كتلة الجسم فى سرعته إذا كان يتحرك بخط مستقيم، ومعنى ذلك أنه كلما كان نصف قطر المدار أكبر، كلما كان الزخم الدورانى أكبر، على اعتبار أن كتلة الإلكترون وسرعته ثابتتان، ولذلك فإن الزخم الدورانى للإلكترون لا يمكن إلا أن يأخذ قيمًا معينة أو محدودة، أى أنه يخضع لقاعدة التكميم، أى المقادير المحدودة، لكن مع ذلك وجد آينشتاين وغيره أن حركة الإلكترونات وانتقالها عبر المدارات صعودًا وهبوطًا لا تخضع لحركة حتمية تفرضها قوانين الحركة التقليدية التى أتى بها نيوتن، وإنما لاحتمالات الإحصاء وقواعده التى لا تقول بحتمية حدوث شىء وإنما بنسبة مئوية لاحتمال حدوثه، استنباطًا من المراقبة والإحصاء، وبذلك لا يمكننا معرفة متى ينتقل إلكترون من مداره إلى مدار آخر، فليست هناك قوة خارجية تدفع الإلكترون ليقفز فى لحظة معينة، وهكذا بدأ التفكير فى قوانين أخرى غير قوانين الميكانيك التقليدى المعتمدة على قوانين نيوتن فى الحركة، وكان هذا الميكانيك الجديد هو ميكانيك الكم، ودخل عصر فيزياء الكم التى أسسها الألمانى

ماكس بلانك، وهى أهم بكثير من النظرية النسبية لآينشتاين، وأكثر وقعًا منها، ولها أكبر الأثر فى التقدم العلمى والتكنولوجى، من استخدام الطاقة الذرية إلى الكمبيوتر.

ولفهم ذلك يلزمك أن تعلم أنه لو كانت عندنا شحنة كهربائية «موجبة أو سالبة» وساكنة فانه يمكننا تحريكها لجذب الشحنات المخالفة أو تنافر الشحنات المتشابهة، فإذا كان التحريك بسرعة ثابتة فإن مجالاً مغناطيسيًّا ينشأ عن ذلك، والتيار الكهربائى الذى يسرى فى الأسلاك ما هو إلا سيل من الإلكترونات ذات الشحنة السالبة تتحرك بسرعة ثابتة، فيتولد مجال مغناطيسى حول السلك، أما إذا تحركت الشحنة بسرعة متغيرة، متسارعة أو متباطئة، فإننا نحصل على موجات كهرومغناطيسية، وهى تتكون من موجتين متعامدتين متلازمتين، إحداهما كهربائية فى الاتجاه الرأسى، وأخرى مغناطيسية فى الاتجاه الأفقى، ولا تحتاجان إلى وسط ناقل، بل يكون الانتقال فى الفراغ، ولها خاصية مهمة جدًّا وهى أن سرعتها تساوى سرعة الضوء، وأطوالها تختلف، فالموجات الطويلة هى الراديو، والأقصر الرادار، والأقصر المايكروويف، والأقصر هى الأشعة تحت الحمراء، والأشعة الحرارية، والأقصر هى الضوء الذى نراه المكون من ستة ألوان، لكن تجاور الضوء الأزرق موجات هى الموجات فوق البنفسجية، التى تستعمل لقتل الحشرات وتعقيم الأدوات الطبية، وتليها موجات أشعة X التى تستعمل لتصوير الأحشاء والعظام ولفحص محتويات الأمتعة فى المطارات، ثم أشعة غاما وهى قاتلة، والغلاف الجوى يحجب الضار من هذه الموجات الكهرومغناطيسية بحكمة الله، ولا يسمح إلا بالضوء وموجات الراديو عالية التردد، والأوزون بشكل خاص يمنع الموجات فوق البنفسجية، والإلكترون حول نواة الذرة هو الذى يولد الموجات الكهرومغناطيسية على اختلاف أنواعها، إذ هو يتحرك باستمرار، ويقفز من مدار إلى مدار، وبما أن للإلكترون كهربائية سالبة وأن حركته تعنى أن باستطاعته أن يولد أمواجًا كهرومغناطيسية، فهو يمتص ويطلق، وهذه الموجات طاقة، لذلك فإن رصيد الإلكترون من الطاقة يتغير باستمرار، وتكون ذرة كل عنصر فى نشاط إلكترونى دائب لا يتوقف إلا عند درجة 273 تحت الصفر، فتتوقف الإلكترونات عن الحركة، وعمليًّا لا يمكن الوصول إلى هذه الدرجة المتدنية، ولكن إلى قريب منها، وعلى ذلك فإن الجليد يبعث أيضًا موجات كهرومغناطيسية.

النقلة الحاسمة التى حققتها فيزياء الكم

وحين يصل سرد تاريخ التطور العلمى إلى هذه المرحلة لا يعود بالإمكان ذكر تطور الاكتشافات والنظريات من دون إطالة تخرج بنا عن موضوع منهجية التربية، وتكون عسيرة الفهم أيضًا على من لم ينل أوليات الفيزياء، لذلك لابد أن نخرج مضطرين إلى إيجاز مخل، وأن نكتفى بالمقدار الضئيل الذى يمكننا من استنباط نقاط منهجية فيما بعد.

تبدأ نقطة الاتصال بما مضى من اكتشاف منحنى توزيع الإشعاع لأى جسم مهما كان نوعه أو حجمه أو وزنه، فقد وجد أن شدة الإشعاع تتزايد بتزايد التردد الموجب حتى تصل إلى نقطة عظمى تتمثل فى قمة التحدب للخط البيانى، ثم تبدأ بعدها بالانحدار السريع. كلما ارتفعت درجة الحرارة زحفت قمة الخط البيانى باتجاه مقاييس الضوء المرئى، فمثلا يحمر الحديد أولاً عند درجة حرارة عالية، ويكون كالجمر، فإذا زادت الحرارة يصبح لون الجسم الساخن برتقاليًّا ثم أصفر ثم أبيض، مما يعنى أن هناك إشعاعات لجميع ألوان الطيف المرئى، وقد وجد وين أن تردد الموجات العالية المقابل لقمة الإشعاع يتناسب طرديًّا مع درجة حرارة الجسم. ثم وجد ستيفان أن الطاقة الكلية التى يعيشها الجسم تتناسب مع الأس الرابع لدرجة الحرارة، ثم وجد غيرهما أن كثافة الإشعاع ذى الترددات المنخفضة تتناسب طرديًا مع درجة الحرارة وعكسيًّا مع القوة الرابعة للتردد، ونتج عن كل هذا ربط ظاهرة الإشعاع، ومنها الضوء، بالحرارة، ويعنى ذلك الاقتراب من وضع قانون فيزياوى شمولى يفسر جميع الظواهر، وسعيًا فى هذا الاتجاه تم ربط قوانين نيوتن فى الحركة، والتفسيرات التى تبعتها من ارتباط ظاهرتى الإشعاع والحرارة، بثلاثة قوانين جديدة تسمى قوانين الديناميك الحرارى، أو الثرموديناميك، وأهمها وأخطرها هو القانون الثانى المعروف بقانون الإنتروبى الذى يقول بأن الفوضى والعشوائية تزداد باستمرار، وأساس ذلك أن الحرارة تنتقل من الجسم الحار إلى البارد، وهذا يعنى أن التفاوت فى درجات الحرارة بين الأجسام يميل إلى التناقص حتى يكون التفاوت صفرًا، أى حالة التعادل والتساوى فى درجات الحرارة، وهذا يعنى حصول حالة الفوضى، لذلك فإن السير نحو الفوضى يتزايد. بمعنى أن التفاوت يولد الحركة، ويتم تبادل منافع الحياة، وأما التساوى فيمنع الحركة، فتكون الفوضى بسبب السكون.

لكن هناك علاقات أخرى رويناها بين الضوء والكهرباء والمغناطيسية، ورأينا تطور الاكتشافات فى هذا المجال حتى تم اكتشاف تكون الموجات الكهرومغناطيسية من موجتين متعامدتين، وقد قام الإسكتلندى ماكسويل بدراسة هذه الثلاث، وتوصل إلى معادلات رياضية تصف العلاقة عرفت بمعادلات ماكسويل للإشعاع الكهرومغناطيسى، وهى معادلات أحدثت نقلة كبيرة فى الفيزياء فى أواخر القرن التاسع عشر، وما أن حلت سنة 1900م حتى استطاع الألمانى ماكس بلانك أن يفسر الإشعاع الكهرومغناطيسى بطريقة بسيطة وصحيحة ودقيقة، فقد لفت نظر بلانك أن ما قاله بولتزمان حول الفوضى كان يقوم على تقسيم الطاقة الإشعاعية رياضيًّا إلى قطع أو أجزاء يجرى تطبيق القوانين الإحصائية الاحتمالية عليها، ثم يجرى تجميع هذه الأجزاء وفقًا لعملية التكامل الرياضية، ووجد بلانك أن أجزاء الطاقة الصغيرة هذه موجودة فى المعادلات الرياضية قبل إجراء عملية التكامل عليها، فلماذا لا نتعامل معها إذن بدون تجميعها؟ **بمعنى آخر:** وجد بلانك أن الطاقة غير موجودة بشكل انسيابى مستمر، وإنما توجد بشكل كمات صغيرة، وأن كم الطاقة يتناسب مع تردد الموجة الكهرومغناطيسية، وبالتالى فإن الطاقة الإشعاعية تساوى حاصل ضرب تردد الإشعاع بعدد ثابت قيمته: 6.63×10^{-34} جول ثانية، ويسمى هذا العدد: ثابت بلانك. والجول هو وحدة الطاقة، أى أن وحدة ثابت بلانك تساوى وحدة طاقة مضروبة فى وحدة زمن، ويدعى ذلك بـ «الفعل». وكانت هذه العلاقة البسيطة تمثل بداية لأكبر ثورة علمية فى العصر الحديث، وبداية لعهد جديد للفيزياء، عهد فيزياء الكم، على أيدى بعض العلماء الشباب أواسط العشرينات من القرن العشرين، وسارت الاكتشافات بخطوات قافزة.

كان من أولها سؤال ذكى سأله الفرنسى دى بروى، **ملخصه:** أن ما دام للفوتون خاصية مزدوجة أيضًا؟ جسمية موجية، فلماذا لا يكون للإلكترون هذه الخاصية المزدوجة؟ وقد صدقت توقعات دى بروى وأثبتها باستعمال معادلة بلانك. ولأسباب هندسية فإن موجة الإلكترون تكون واقفة، كموجة الوتر حين يهتز. وبالتالى فإن مدار الإلكترون يجب أن يساوى مضاعفات صحيحة لهذه الموجة، أى أنه ربط الخاصية الكمية، أى المضاعفات الصحيحة لطول الموجة، بالخاصية المزدوجة – الجسمية والموجية– للإلكترون. ثم اقتراح بور

أن شدة الإشعاع لخطوط الطيف تقابل الحركة التوافقية الهارمونية لحركة الإلكترونات فى المدارات الخارجية، ويسمى ذلك بمبدأ التقابل.

ثم تساءل بور: كيف يعرف الإلكترون متى يبعث طاقته؟

وكان آينشتاين واعيًا لهذا السؤال اللغز.

وتوصل هاينزك إلى أنه يجب كتابة قوانين الحركة ليس لوصف موقع الإلكترون وسرعته، وإنما لوصف تردد الموجات وسرعتها. ووضع صيغة لذلك تعتمد على رياضيات المصفوفات، وأهم ما فيها أنها غير قابلة للتبادل. أى أن (3×4) لا تساوى (4×3)، مثلاً، وكانت هذه الصيغة هى الأساس الأول لنظرية الكم. وأما الأساس الثانى فانبنى على ما قام به شرويدنكر النمساوى عندما وضع معادلة للموجات الواقفة حول النواة، أى موجات دى بروى الفرنسى، وقد أثبت عدد من العلماء بعد ذلك صحة ادعاء دى بروى من أن للإلكترون ولكل جسم بصورة عامة موجة مرافقة له، وصار من المؤكد أن للإلكترون خصائص موجية، وأنه يسلك وكأنه موجة كهرومغناطيسية.

وكان هاينزبرك هذا، فى تنظيره لفيزياء الكم، قد نشر أول بحث له عن ميكانيكية الكم عام 1925م، وبعد سنتين أدلى بنظرية «عدم التأكد» التى كان لها أبعاد فلسفية وفكرية عميقة، وكان تلميذًا لكبار علماء الفيزياء، لكن آينشتاين اعترض على نظرية عدم التأكد، ولكن تأكدت صحة نظرية هاينزبرك فيما بعد ونال جائزة نوبل عليها.

وفى عام 1926م نشر شرويدنكر بحثًا استخدم فيه معادلات الحركة الموجية لتفسير ذرة الهيدروجين، فكان ذلك إيذانًا بولادة الميكانيك الموجى. ثم شهدت السنة نفسها اشتقاقا رياضيًّا جبريًّا لقانون بلانك قام به البريطانى بول ديراك. وهكذا أصبح لدينا ثلاثة طرق رياضية لتأصيل نظرية بلانك فى فيزياء الكم: المصفوفات، ومعادلات الحركة الموجية، ومعادلة ديراك الجبرية. وقد لاحظ شرويدنكر أن ملاحظة دى بروى عن موجية الإلكترون لم تسند بمعادلة رياضية، فاستطاع أن يجد معادلة الموجة عام 1926م أيضًا، مستعينًا بالنظرية النسبية، وأصبحت معادلته هى الصياغة الثانية لنظرية الكم، وتلقى العلماء ذلك بحماس كبير، منهم آينشتاين وبلانك نفسه، مما أهله أن يكون زميلاً لآينشتاين فى جامعة برلين. وقد

كان ظهور نظرية الكم ملغيًا لفلسفة التحديد والحتمية، المعتمدة على السببية، والتى تقول بأن لكل شىء سببًا، وأننا يمكننا قياس الكثير من العوامل المؤثرة فى الأشياء قياسًا دقيقًا فى الغالب من حجم وسرعة وطاقة. لكن فيزياء الكم أظهرت أن عملية القياس تؤثر على خصائص الشى بشكل يستحيل معه التعرف بدقة كاملة عليها، فللتعرف على الإلكترون ينبغى أن نستعمل أشعة غاما ذات الموجات القصيرة، والتى ربما تقتلع الإلكترون.

وهكذا نقضت فيزياء الكم الحتمية السببية، حتى إنها تقول بأن تحلل نواة الذرة فى المواد النشطة إشعاعيًّا يحدث من دون سبب، خلافًا للقوانين المعروفة، مما مهد الطريق لظهور نظرية الفوضى التى لا تقصر فيزياء الكم على الدقائق الصغيرة فقط وإنما تشمل عالمنا الكبير والكون، وأدت إلى انحسار النظرة المادية والفلسفة الوضعية المنطقية والمادية الجدلية.

وقد أدت نظرية الكم إلى تواضع العلماء أكثر من ذى قبل، فعندما اكتشف نيوتن قوانين الحركة أصاب بعض العلماء الغرور، لكن عندما اكتشف ماكس بلانك الكم واكتشف آينتشاين النسبية أصبحت قوانين نيوتن فى المتحف، وفى هذا دليل على نقص المعرفة البشرية المحدودة، وأن الإنسان يحتاج إلى مصدر آخر للمعرفة من خارج دائرة إدراكه وإمكانياته، وهذا ما مال إليه أركان نظرية الكم الكبار: هايزنبرك، وشرويدنكر، وبور، وكل هؤلاء كتبوا كتبًا فى ذلك وصرحوا بالتوحيد.

وقد أشارت التجارب الضوئية إلى أن الفوتونات تغير من طبيعتها عندما نحاول التعرف على خواصها، فالضوء يسلك كأنه موجة عندما يدخل من شقين اختباريين فى صندوق مغلق، ولكنه يسلك كجسيمات صغيرة عندما يدخل من شق واحد، وأنه يستحيل معرفة موقع الفوتون وزخمه بدقة تامة فى الوقت نفسه. إذ إننا إذا أردنا أن نعرف موقع الفوتون فإن اتجاهه يبقى مجهولاً، والعكس أيضًا، وهناك حدود للدقة التى نستطيع بها قياس خاصيتين، وهناك هامش خطأ، قد لا يعنى شيئًا بالنسبة للأجسام الكبيرة، لكنه بالنسبة للأجسام الدقيقة - كقياس موقع الإلكترون- فإن الخطأ قد يصل إلى ضعف سرعة الضوء، وفى مثل هذا ما يشير إلى أننا لا نستطيع العلم الوافى بحقيقة الوجود، وقد أثارت ظاهرة أخرى فى الضوء لغزًا آخر يزيد الحيرة، وهى الاستقطاب، فمن بعض التجارب استدل العلماء على أن زاوية

استقطاب الضوء.. أى اتجاه فوتوناته.. هى من خصائص الضوء، وحينما نقيس كتلة كبيرة، مثل كرة حديد، فإننا نأتى بميزان ونضعها فيه لمعرفة كتلتها، أى: أن كتلتها خاصية لا علاقة لها بالميزان، فهى موجودة قبل أن نقوم بالوزن، أى لها واقع. لكن نظرية الكم تقول بأن الفوتونات ليس لها اتجاه حقيقى قبل قياسه، وإنما يصبح لها اتجاه حقيقى فقط عندما نقيسها، وأن الأمر ينطبق على خصائص الجسيمات الصغيرة أيضًا، كالإلكترون والبروتون، إذ ليس لهذه الدقائق خواص حقيقية إلا بعد قياسها، ولا يستطيع أحد الجزم بأن الفوتونات كان لها اتجاه معين قبل وصولها إلى آلة قياس الاتجاه. وكان بور المقيم فى كوبنهاكن يرى ذلك، والشىء الوحيد الذى يراه بور أنه باستطاعتنا أن نتوقع شيئًا من ذلك وفقًا للاحتمال الإحصائى فقط، والعيب ليس فى الدقائق الصغيرة المقاسة، وإنما العيب فى معرفتنا عنها، وهذا هو المبدأ الأساسى فى ميكانيك الكم، وهو أنه لا يمكن أن نلاحظ عددًا من هذه الخصائص الطبيعية لشىء ما ونعرفها بشكل دقيق فى الوقت نفسه، ولكن يمكننا أن نلاحظ عددًا من هذه الخصائص المختلفة التى تعطينا فى مجموعها وصفًا لذلك الشىء. وإذا عرفنا زخم الإلكترون بدقة مقدارها 70٪ فيمكننا معرفة موقعه بدقة مقدارها 30٪، ونحن إما أن نعرف الطاقة، أو أن نعرف الزمن، أما معرفتنا بهما معًا -وعلى وجه الدقة معًا- فأمر مستحيل. وفى هذا ما يقود إلى تفسير فلسفى بعيد عن المادية وإلى إيمان بوجود الله المدبر، إذ كان أصحاب نظرية الكم يؤمنون بوجود تأثير عن بعد، ولا سببية فى خواص الدقائق. لكن كان آينشتاين من المعارضين لبور فى نظريته هذه، واستمر معارضًا حتى موته، وحصل سجال علمى طويل، وافترض آينشتاين لو أن جسيمين دقيقين كانا سواء، ثم افترقا إلى مسافة كبيرة فى اتجاهين متضادين، وعندئذ فإن المسافة البعيدة تجعل القياس ممكنا، وبذلك يكون وصف الواقع ممكنًا. لكن بور رد على آينشتاين بأن آينشتاين يفترض أننا نقيس من دون أى تأثير، وفى ذلك غموض، لأن الجسيمين رغم تباعدهما إلا أنهما ينتميان إلى إطار مرجعى واحد، وفى هذا الإطار يكون تأثير أحد الجسيمين بالآخر عند عملية القياس رغم البعد. وأجاب آينشتاين بأنه لا يرى تلازم الجسيمين، ولكن يمكن أن يكون هناك تأثير سماه شبحيًّا، وهو تأثير لحظى، حتى وإن كان على مسافة بعيدة جدًا، كألف مليون كيلومتر. وهذا يخالف النظرية النسبية التى تقول بأنه: لا سرعة أكبر من سرعة الضوء، إذن هناك تأثير ينتقل بأسرع من سرعة

الضوء، وهذا ما جعل بور يؤكد أنه لا يوجد واقع فى عالم الكم، وإنما يوجد وصف كمى للعالم والواقع. وهذا السجال العلمى يضعنا أمام خيار صعب، فإما أن نؤمن بوجود تأثير لحظى عن بعد، وإما أن نضحى بالواقع الموضوعى.

الخيار الأول يعنى أن هناك تأثيرًا بسرعة لا نهائية تجعل الأحداث لا محلية، أى أن التأثير يجرى فيها بأسرع من الضوء، وهذا يعنى وجود شىء غير الضوء والمجال الكهرومغناطيسى لا نعرفه ولا ندركه يتعارض مع قوانين الفيزياء العادية والنظرية النسبية، وهو شىء خارق بكل معنى الكلمة، وكان بعض علماء الكم أكثر جرأة وصراحة وأكدوا أن هذه القوة القاهرة هى الله تعالى، يفعل ما يشاء وقت ما يشاء، وكان الخيار الثانى يعنى التضحية بالواقع الموضوعى واعتبار أن كل ما ندركه ليس حقيقيًّا، وأن وعى الإنسان وَهْمٌ لا يمكن الاعتماد عليه.

وانقسم العلماء إلى فريقين، واهتزت المادية العلمانية بذلك.

مما ينصر نظرية الكم فى هذا المفهوم عملية قياس دوران الإلكترون حول نفسه فى اتجاهات ثلاثة، منها اتجاهان متعاكسان، وآخر إلى أعلى، وتؤكد نظرية الكم أنه لا يمكن أن نقيس غير اتجاه واحد فقط منها، وإذا أردنا قياس اتجاه آخر تأثر الاتجاه الأول المقاس وتغير، ولا نستطيع إلا وضع احتمال لذلك غير أكيد. وقد اعترض آينشتاين على ذلك بأن الإلكترونات المتنافرة تدور بشكل متعاكس، فإذا عرفنا اتجاهًا فى الأول فإن الاتجاه فى الثانى معاكس، وإذا عرفنا اتجاهًا فى نفس الوقت فى الثانى فيكون ما يقابله فى الأول معاكسًا، وبذلك يمكن الجزم بقياسين معًا عن طريق التبادل هذا، لكن أنصار نظرية الكم اعترضوا على آينشتاين فى تصوره هذا، وأنه يفترض عدم تأثير الإلكترونات المتعاكسة كل فى الآخر، بينما التأثير موجود وتخضع الإلكترونات المتعاكسة له فى نفس اللحظة ولو كان البعد بينها أبعد من سرعة الضوء، لأنها تظل ضمن منظومة واحدة تتبادل التأثير، وقد أثبتت التجارب فيما بعد صحة مذهب الكم فى هذا، وأن هناك تأثيرًا غير محلى، أى ينتقل فى نفس اللحظة بأسرع من سرعة الضوء، لا كما تفترض النظرية النسبية بأنه لا سرعة أسرع من سرعة الضوء، وكان آينشتاين يعتقد بوجود عامل خفى محلى لم تكتشفه نظرية الكم يسبب هذا التأثير أقصى سرعة له هى سرعة الضوء.

وقد أثبتت تجربة «ميرمين» صحة ما تدعيه نظرية الكم فى ذلك، **وخلاصتها:** انطلاق جسيمين دقيقين، مثل إلكترونين باتجاهين متعاكسين نحو كاشفين يضىء فيهما إما ضوء أحمر أو أخضر عند وصول الجسيم، ويتم رصد أرقام معينة بشكل عشوائى، زوجية أو فردية عند انطلاق كل جسيم من بين ثمانية أرقام مزدوجة النتيجة، ويمكن تكوينها من الأرقام 1، 2، 3، فى كل من الكاشفين، فكانت النتيجة ــ بعد تحليل ملايين المرات لانطلاق الجسيمات ــ أن نصف الإضاءات حمراء ونصفها خضراء، رغم عدم ارتباط الأرقام باللون، والقواعد الرياضية تفيد بأن احتمال التشابه فى هذه الحالة هو 55.5٪ على الأقل، أى خمسة حالات من كل تسع، بينما نتيجة التجربة هى 50٪، فى حين أن اختيار الأرقام عشوائى، ولا يرتبط به اللون، وأن عدد مرات انطلاق الجسيمات، وتغير الأرقام كان يحدث ملايين المرات فى الثانية الواحدة، ويجعل من المستحيل انسياب التأثير لو افترض بأقل من سرعة الضوء، بل يلزمه -إن وجد - أن ينساب بأكبر من سرعة الضوء ليلاحق التغير اللونى ويواكبه، مما يولد لغزًا علميًّا كبيرًا يدل على وجود تأثير أسرع من سرعة الضوء، ومثل هذا التأثير هو المدخل لإثبات كثير من قضايا الدين والوحى والقدر.

وقد أجريت تجارب أخرى عديدة أكثر تعقيدا من هذه فى مراكز علمية فى مختلف البلدان فكانت النتائج مدهشة جدًّا وتؤكد صحة نظرية الكم فى أن بعض الحقائق العلمية تأتى خلافًا للاستنتاج المنطقى، وأنه لايوجد واقع حقيقى، بل يمكننا أن نتعرف فقط على بعض أوصاف هذا الواقع، والتى هى فى تغير دائم، وأن هناك تأثيرًا غير محلى يتجاوز سرعة الضوء التى افترضتها النظرية النسبية، وكانت تجربة الفرنسى أسبكت عام 1982م تجربة دقيقة وحاسمة أثبتت صحة توقعات نظرية الكم بشكل قاطع، وقد استعمل فيها الفوتونات كأجسام دقيقة، واتبع نفس أسلوب تجربة ميرمين العشوائى، ولكن عبر أجهزة أكثر دقة، وهذا يعنى أن حقيقة الكون والطبيعة هى غير ما ندركه بحواسنا وما يستقر فى أذهاننا، وأن نتائج القياس تنشئها «معرفة» الشخص الذى يقوم بالقياس، أى ليس لها وجود حقيقى، ويعنى ذلك انتفاء قانون السببية الذى استندت عليه الفلسفة الإلحادية، ويعنى أن الدقائق الموجودة فى الكون يتفاعل بعضها مع بعض بطريقة معينة ويؤثر بعضها فى بعض بشكل آنى لحظى، وأن الإلكترون والبروتونات المكونة لأجسامنا ترتبط بمثيلاتها فى الكون كله بطريقة من الطرق،

فنحن جزء من عالم كبير مترابط، ولا أحد يعرف حقيقة هذا الأمر، فى الوقت الحاضر على الأقل، وأقرب الأمثلة إلى ذلك وجود الجاذبية وتأثر أجسامنا بها، سواء جاذبية أجرام بعيدة، أو جاذبية الأرض، بمعنى أنه لا توجد ذرة فى الكون مستقلة عن الذرات الأخرى، وقد حار العلماء حينًا فى متاهات لتفسير ذلك، وانحصر تفسيرهم بعد تجربة أسبكت فى مضمون نظرية الكم، وتفسير آخر يقول بوجود عوالم متعددة كثيرة العدد، وأننا حين نقيس طبيعة جسم ما فإننا نرى عالمًا من هذه العوالم فقط، ويختار قانس آخر عوالم أخرى، غير أن إنجازات نظرية الكم تشهد لها وترجحها، منذ عام 1927م وإلى الآن؛ إذ لم تخطىء فى أى من توقعاتها، وكان من ثمارها: الليزر، والمجهر الإلكترونى، والترانزستر، والطاقة الذرية، والتوصيل الفائق، وغير ذلك، ويقدر البعض أن نظرية الكم وراء 25٪ من الدخل القومى للبلدان الصناعية المتقدمة.

كان من أهم الاكتشافات العلمية عبر نظرية الكم: اكتشاف الخاصية المزدوجة للجسيمات الصغيرة وتصرفها كجسم وكموجة فى آن واحد، وازدادت أهمية ذلك مع اكتشاف جسيمات دقيقة كثيرة الأنواع، لها هذه الخاصية الموجية، مثل النيوترينو الذى يتولد كناتج ثالث عند تحلل النيوترون إلى بروتون وإلكترون فى عملية الانشطار النووى، وعن طريق المعادلات الرياضية تبين وجوب وجود إلكترون موجب مقابل الإلكترون السالب، واكتشف ذلك فعلاً وسمى البوزيترون، ثم استنتج اليابانى يوكاو وجوب وجود الميزون، وتم إثبات ذلك مخبريًّا، ثم بدأ العلماء يعجلون سرعة البروتون حتى تصبح طاقته الحركية عالية ويقصفون بها أنوية الذرات، فتتطاير من عملية القصف دقائق صغيرة كثيرة الأنواع جدًّا، يعرف حتى اليوم منها أكثر من مائتى نوع، وكان لابد من وضع نظرية تشرح كيفية سلوك هذه الجسيمات العديدة، فكانت نظرية النموذج القياسى، وهى ترى أن جميع الدقائق تتكون من مجموعة دقائق أصغر منها، وتنقسم إلى مجموعة اللبتونات ومجموعة الكواركات ومجموعة البوسونات، وأن الكواركات لا توجد منفردة بل على شكل مجموعات تسمى الهادرونات، بدورها تنقسم إلى نوعين، فما كان من ثلاث كواركات سمى عائلة الباريونات، وما كان من كواركين سمى الميزونات، وتبين أن مجموعة الكواركات ومجموعة اللبتونات تنتميان إلى أصل أكبر هى مجموعة الفرميونات، وجميع المادة فى الكون تتكون من

الفرميونات، لكن تبين بعدئذ أن قوى شحنات التجاذب والتنافر فى الكون سببها جسيمات صغيرة أيضًا تسمى حاملات القوى، ولها مجموعة سميت البوسونات نسبة إلى الهندى بوس الذى اكتشفها واكتشف العلماء أن التفاعل بين الدقائق- أو التأثير المتبادل للقوة- كان نتيجة لتبادل هذه الدقائق لجسيم يحمل هذه القوة. اكتشف البعض أن جميع التفاعلات الضعيفة سببها بوسونات ثقيلة، مما تمكن معه الأميركى واينبرغ والباكسانى عبد السلام- كل على حدة- من القول بنظرية توحد ظاهرة التعاملات الضعيفة هذه التى تقوم البوسونات بالوساطة فيها مع ظاهرة التعاملات الكهرومغناطيسية التى تقوم الفوتونات فيها بالوساطة فى نظرية واحدة استلزمت وجود بوسون ثقيل عديم الشحنة.

وقد نجحت هذه النظرية فى تفسير كثير من فيزياء الدقائق، لكن ليس كلها، مما دفع العلماء إلى التساؤل مجددًا عما إذا كان هناك فى الكون أجيال أخرى من المخلوقات المتناهية فى الصغر لم تكتشف بعد، ومن أجلها انتهى العلم اليوم إلى نظرية الأوتار الفائقة التى تقول: إنه كان للكون فى بدايته عشرة أبعاد، وعندما حصل الانفجار العظيم فى الكون تقلصت إلى ثلاثة أبعاد مكانية وبعد زمنى رابع، وهو هذا الكون الذى نعيش فيه، وأما الأبعاد الستة الأخرى، أو أكثر من ذلك، فقد اندمجت ونتج عنها كائن صغير جدًّا يسمى «الوتر الفائق» له بعد واحد، وهو يهتز بترددات مختلفة، وينتج عن كل تردد أحد الجسيمات الدقيقة التى ذكرناها، لكن الآلات المختبرية العاملة الآن لم تستطع اكتشاف هذا الوتر الفائق بعد، لشدة صغره، إذ إنه أصغر من البروتون بمقدار مائة مليون مليون مرة، وربما يأتى يوم تكون أدواتنا المختبرية قادرة على ذلك، ومازال العلماء يحاولون ويتساءلون، والعلم يتطور ويتطور.

وإلى هنا تنتهى السياحة العلمية الشيقة التى طوفنا د. التكريتى خلالها بمراحل تطور العلم، وقد ذهبت فى الاختصار مذهبًا شديدًا حتى لربما أخللت ببعض المعانى، ومع ذلك جوزت ذلك لنفسى، إذ إني لم أقصد تعليم الفيزياء عبر هذا الاختصار، إنما أردت وضع صورة الهيكل العام لتطور الفيزياء وفق منهجية صحيحة اعتمدها أئمتها، ليتاح لنا الاقتباس منها والقياس عليها واستنباط مثيل لها يصلح أن نطور به التربية الدعوية وعموم الفكر الدعوى، بل تطوير الواقع الدعوى ككل على اختلاف جوانبه بهذه المنهجية المبتغاة التى نسعى شيئًا فشيئًا إلى اكتشاف معالمها العديدة، ثم جمع ما يتفرق من ذلك عبر هذه الوسيلة

القياسية ووسائل أخرى، فى نظرية عامة جامعة تربط ملامح المنهجية الدعوية الصحيحة فى هيكل واحد وإطار شامل، علّ الدعاة يقتدون وينهلون ويجتهدون، بل لى جرأة أن أقول: علّ الدعاة يقلدون، فإن التربية الدعوية المعاصرة لازالت ذات صلة قربى مع الارتجال، ولم تفك إسارها من النمطية التكرارية حتى انتهت بتسبيب الترهل، ثم هى زاهدة قانعة تلتزم السير بسيرة أضعف رجال الرهط، ولا يدفعها طموح عارم يخرجها من التعميم والعناوين الكبيرة إلى تخصيص وتدقيق يفجر الطاقات القيادية الكامنة فى نفوس عدد ضخم من الدعاة ويضعهم كصناع حياة مهرة يستعملون مذهب التحدى فى السيطرة على مجارى الحياة عبر إضافاتهم الطارفة المتناسبة مع الشكل المعقد الجديد للحياة.

فمن أجل التعرف على بعض ملامح المنهجية المبتغاة: كانت تلك السياحة الفيزياوية.

سباعية الإيحاءات الكمية

* وأول صدى ورد فعل دعوى لقصة تطور الفيزياء التى علمناها ينبغى أن يأتى فى صورة توجه علمى عميق تدأب فيه العناصر ذات التخصص العلمى من الدعاة، طمعًا فى إحداث تحول إيمانى عام فى الشعوب يهزم الفلسفة الإلحادية المستندة على العلم فى طوره السابق على نظرية الكم، وبه تقترب الشعوب من التوحيد والتدين، سواء أكان ذلك فى البلاد الإسلامية، حيث يتوب من ألحد ويرجع، ويتقوى إيمان الضعيف، ويتأصل على بينات من الأمر العلمى فكر من أذعن للشرع ابتداء، أو سواء أكان ذلك فى المجتمعات الغربية النصرانية أو الشرقية الوثنية، حيث يمكن أن يقتربوا بذلك من العدل والإنصاف واطراح التوتر الذى ميز تعاملهم القديم والحالى مع أمة الإسلام.

إن التوحيد الذى تغرسه نظرية الكم مازال لا يرى، لأنه حديث الولادة طرى الاكتشاف، ولم يصلب عوده بعد، لكن رؤية السياق ونسق التطور الكمى ينبئ عن احتمال حصول توجه توحيدى عالمى يفرض نفسه على الأجيال القادمة فرضًا، وبعنفوان يوازى فرحة التوبة المعروفة فى علم النفس الإسلامى، وبه سيعيد العالم اكتشاف نفسه وهويته الضائعة وحقوقه المسروقة منه فى أن يعيش بسلام وهدوء بعيدًا عن القلق المدمر والحيرات، وينتقل به إلى رفل بأنواع من الخيرات التى يعاد فيها تشكل أفكاره التفصيلية ومذاهبه فى طرائق الحياة وفهم

معانى السعادة وتنقية النفوس من الشوائب ، وسينعكس كل ذلك على المجتمعات الإسلامية فى صور ثلاث: صورة التأثر الاقتناعى لدى جيل من المثقفين يذعن للدليل، وصورة المقلدين الذين يرون فى الفكر الغربى مثالاً أعلى، فيحذون حذو أهله، وصورة انحسار الضرر المتولد من التفوق الإعلامى والتعليمى للغرب على العالم الإسلامى، مما تصبه الجامعات وبرامج القنوات الفضائية وما أشبه، إذ ستكون أقل شرًّا إذا شاعت موجة التوحيد العلمية وتبدلت النزعات الفلسفية المسيطرة حاليًا، وسيحاول اليهود جاهدين أن يمنعوا حصول هذه الأوبة الإيجابية إلى الصواب والتى يقودها العلم، كى يبقى العالم تحت ضغط القلق المدمر للنفوس، مما أفصحوا عنه فى بروتوكولات مؤتمر حكمائهم الشهيرة، ولكن مهمتهم على أى حال لن تكون سهلة، لقوة البرهان العلمى ورسوخ المنهجية العلمية فى حياة جيل عريض من أهل الغرب.

ولعل بوسعنا بعد احتلال نظرية الكم الفيزياوية لموضع قدم حصين فى معركة الحياة، وتزايد أعداد الموحدين من علمائها، أن نتلمس أن فلسفة التوحيد والإيمان بالغيب أصبحت معلمًا من معالم ظاهرة «العالمية الجديدة» وحقيقة من حقائقها تفرض نفسها عبر حضور عالمى رفيع المستوى، وكانت أمريكا قد أرادت التفوق العلمى عبر حرب النجوم وغيرها ليخدم مفهومها للنظام العالمى الجديد من زواياه السياسية والاقتصادية وليضعها فى مقام القيادة لهذا النظام، لكن هذا العلم خرج عن سيطرتها بقدر من الأقدار الربانية المحضة وفتق عليها فتقًا فلسفيا ما كانت تحسبه، يجعل موازين الصراع الإستراتيجى تميل إلى صالح الموحدين خلال نصف قرن من الآن ربما، ثم إلى صالح المسلمين بخاصة من بعد ذلك إذا أحسنوا تحويل مسار التوحيد التعميمى المتشابه إلى توحيد تخصيصى إسلامى محكم واضح، وآنذاك سيبرز الدور الحاسم للتربية الدعوية فى إتمام هذه النقلة التاريخية، مستعينة بالمتراكم القديم والحديث من الفلسفة الإسلامية وشروح العقيدة والكم المتزايد من حقائق الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة، لكن واجبًا ثقيلاً كهذا ينبغى أن لا ننتظر يومه انتظارا سلبيًّا كسولا، وإنما ننتظره انتظارا إيجابيا شجاعًا عبر اجتهاد وإبداع وتخريج مبدعين نعينهم على احتلال مواقع التأثير من الآن، وهذا يستلزم وجود منهجية تربوية دعوية تتعمق فى بحث ما أوجزناه، وتكافئ كل ثغرة بمكافئ، وتستثير الطاقات الهاجدة، وتنقلها إلى ميدان التهجد والمجاهدة.

إن قصة موسى الذى تربى فى قصر فرعون قد تكررت، وأراد البيت الأبيض للعلم أن يكون تابعا فى فرض نظامه العالمى فأبى إلا الإباء وكان سيدا.

ينبغى أن تفهم اللجان التربوية فى أجزاء الدعوة فى كل قطر، أن علماء فيزياء الكم فى جامعات كمبردج وعموم حواضر أوربا، وفى هارفرد وعموم حواضر أمريكا، وفى طوكيو وموسكو، وإستراليا وجنوب أفريقيا، والهند وباكستان: هم أصدقاء الدعوة وأنصارها، شاءوا أم أبوا، أدركوا أم لم يدركوا، وينبغى أن يقوم حلف – لا حاجة لكتابته– بين رجال الدعوة وعلماء هذه المراكز، يخرج بالهمس التوحيدى العلمى من إطاره المحدود حاليًا ومن مشيه على استحياء، إلى أن يكون صرخة عالمية عالية النبرة، لطيفة الأنغم، وينبغى أن تكون كذلك، لأن ذلك فقط هو الذى يليق بالأوتار الفائقة.

ومما لاشك فيه أن بداية مثل هذه المنهجية الدعوية التى تحالف عشاق الإلكترون والفوتون والوتر الفائق ينبغى أن تمر عبر مدخلين أساسين: رصد الدعوة لثلة من أبنائها تهبهم للعلم، إذ لابد أن يخرج لرجال قريش الأكفاء إذا أرادوا التقاتل، فكيف إذا أرادوا التحالف، ولتكون لغة الحوار مشتركة مفهومة، ثم أن توسع الدعوة فرصة دخولها بمدخل ثان يتمثل فى إشاعة الثقافة العلمية فى الوسط الدعوى، عبر الدروات الخاصة، والبرامج الإعلامية، وتوزيع الفيديو العلمى، وأول ذلك: ترشيح كتاب «حبات المعرفة» للدكتور محمد التكريتى للمطالعة العامة، مع مكمله المسمى «القوة الخفية»، وأمثالها.

إن مرور أكثر من سبعين سنة على بداية الدعوة، ومرورها بمراحل التطور المتدرجة، والعقبات والمحن التى جوبهت بها، ينبغى أن يقنعنا بأن حصول الانتصار الدعوى أكبر من أن تكفيه تعميمات، وتربية تقليدية غير متجددة ولا متكيفة مع المستجدات، وطلقات جهادية على مذهب الجهاديين، وخوض انتخابات برلمانية على مذهب السياسيين، بل حتى أكبر من أن يكفيه وصول إلى السلطة، كالذى يحدث فى السودان، حيث لا يزال أكثر الشعب بعيدًا عن روح الإسلام والفكر الإسلامى الملتزم والتأدب الصارم بآداب الشرع بعد أكثر من عشر سنوات من الحكم، وإنما يؤدى إلى الانتصار الدعوى مشروع حضارى شامل، العلم التطبيقى ركن أساس فيه، ونحن نتطلع إلى تأثير يرسخ، وتحول فى المفاهيم والعقائد

والأخلاق والأذواق ونمط الحياة، ولذلك يجب أن تكون التوعية العلمية المؤداة بأيادى علماء دعاة لا يجف ماء وضوء أحدهم حتى يلحق بوضوء آخر- أحد الأهداف التطويرية الدعوية فى المرحلة المقبلة، جنبًا إلى جنب مع التوعية السياسية والتمكين الاقتصادى والممارسة المؤسسية، وما وازى ذلك مما انتهت إليه محاضرات حول معالم تطور الدعوة كنت ألقيتها على مجاميع الدعاة فى أماكن شتى، ولعل أجدى وسيلة لذلك تناسب أساليب العصر: سعى الدعوة لأن تكون فى مركز القيادة فى حلف علمى عريض إسلامى يتولى إنشاء قناة فضائية علمية بحتة تنتصر لفلسفة التوحيد وفيزياء الكم وتذيع إنجازات حملة الإعجاز العلمى القرآنى النبوى، وتضيف لمسات أخرى مع جميع العلوم الرياضية والكيماوية والطبية والجيولوجية والفلكية، ويمكن أن تسند هذه القناة التى تذيع بالعربية والإنجليزية وبعض لغات الأمة الإسلامية بمجلة علمية متخصصة مثيلة بمختلف اللغات أيضًا، وبذلك ينشأ جيل عريض واع موحد ينصر قضية الإسلام لا يضره أن تبقى بقية فى المسلمين هى غثاء سيل ليس غير.

وينبغى أن ترفد هذه المقارنة الأولى بمقارنة من وجه ثان، نتبين بها أن التطور فى فيزياء الكم وإن استند إلى جمهور عريض من الباحثين فى المختبرات فى جامعات الغرب والشرق ومراكز العلم والصناعة قد يبلغ عددهم المليون ربما، من بين مهندس وأستاذ جامعى وطالب دكتوراه ومعيد وباحث ومساعد باحث وفنى وكاتب علمى تتوزعهم مائة جامعة عريقة وألف مصنع وعشرات المشاريع الجبارة ذات المجال المتخصص، إلا أن هذا الجمهور العريض احتاج احتياجا حقيقيًّا إلى كبار علماء الفيزياء لكى تتم الاكتشافات فعلاً، أصحاب العقول الكبيرة والذكاء وقوة الإرادة والتحمل والتضحية، أمثال ماكس بلانك، ورزذرفورد، وفيرمى وآينشتاين وإن خالف، فى ثلاثين أو أربعين اسم آخر فقط، إذ هم الذين افترضوا واستقرءوا واستنتجوا، ودخلوا فى حوار جاد، يرد بعضهم على بعض، ومن خلال معمعة الردود تكتشف الحقائق، وبمعنى آخر كانت هذه الثلة القليلة «قيادة» لذلك العدد الضخم من الباحثين والفنيين، وبدون هذه القيادة ما كان يمكن أن يكون الإنجاز عظيما فعلاً.

والقياس يرينا بسهولة انعكاس هذا المعنى على العمل الدعوى، إذ إن هناك ملايين الدعاة، نعم، لكن الحاجة لقيادة هذه الملايين من قبل عناصر مميزة حاجة قائمة وضرورية، والقيادات هى التى ستحلل وتستنتج وستدلى بفرضيات عقلانية وتستقرئ، وتضع الهدف وخطة السير لتحقيقه، وكما كان وجود عمالقة الفيزياء يحقق العدوى المعنوية ويشجع أجيال الشباب على أن يحذو حذوهم واتخذوهم أمثلة عالية ورموزًا – فإن قادة الدعوة ومفكريها ينتصبون قدوات للدعاة، ويتحقق عبر وجودهم تأثير عاطفى محرك. نعم، القيادة جماعية فى مفهومنا، ويجب أن نحوز منهجية متكاملة للتربية القيادية الدعوية التى تخرج أعدادًا كافية من أصحاب المقدرة القيادية والفكر الإبداعى، لكن هذا القيادات على الأغلب ستكون هى الصف القيادى الثانى والثالث، أما الصف الأول فهم منحة ربانية يقدر الله لهم أن يكونوا أعلى كثيرًا من المستوى المعتاد، وهم فوق الوسائل التربوية، يربون أنفسهم ويجهدونها فى تحصيل الخير والعلم والفصاحة، ولهم إيمان عميق وتعبّد يكسبهم هيبة وقوة شخصية آسرة، وهم أنفار ألمعيون قلائل، مع ذكاء حاد ونمط جاد، وقد شغلتهم القضية حتى يكثر ويتعاظم تفكيرهم فى حيثياتها، وفى طباعهم مرونة تجعلهم يلتذون بحوار مع الغير، فتنضج قرائحهم يومًا بعد يوم، وتمتزج خواطرهم وتأملاتهم بخبرة ميدانية وتجربة عملية نتيجة انغماسهم فى ألوان النشاط وحمل بعض الأعباء الثقيلة ومصاولة الأعداء، حتى إذا فارق الشباب أحدهم ودخل الكهولة: تم رشده، واستوى فقيها يجتهد، ومتفرسا يتكشف له هلال رفيع من الغيب فيستدل به على صور بدر آتٍ فيبتدر، ويخطط، فيكون إمامًا فى فن المنهجية ويتفجر من قلبه الصواب ثرًّا نقيا، فتهفو له النفوس، ويكون القدوة، وليس إتيان القدر بهم ابتداء، ورعايته لهم انتهاء، يعفينا من مسئولية المشاركة فى إعانتهم على احتلال مواقعهم، تتمثل صورة هذه المسئولية فى جعل طريق صعودهم سالكًا سلسًا، بأن نمنع قلوبنا عن حسد لهم ينغص، وأن يمنحهم لساننا قولاً جميلاً يدفعم لمزيد بذل، وأن نوسِّد لهم الوسائد، ونتحالم إزاء هفوة، ونتجاهل رؤية زاوية من النقص، ونجلهم عن صخب فى سوق، أو جدل يَحْبَهُهُم به طارئ غير أصيل، وبذلك يتوافق العطاء الربانى مع حسن الاستقبال الإنسانى فى بيئة نقية، وندى من طرى الدعاء، تحت شمس الوضوح والحقوق والأنظمة وبين جدران المؤسسية، فتكون الزهرات، فتكون الثمرات.

شمس بلا كواكب

لكن هذا الحديث يقودنا إلى باب قياس ثالث، به ننفى صواب زعامة الزعيم الأوحد، الذى يمسك بالعصا السحرية، فيأتى باللمسات الإعجازية.

إن من مأساة العمل الدعوى أحيانا أن يرفع بعض الدعاة عقيرتهم بالترويج لمثل هذا الكلام الرجعى الذى تجاوزه الزمن، ويروجون لصاحب فضل بهرهم علمه أو عمله، فيصدقهم الفاضل، ويعتقد صواب الواهمين، فيحتكر الحق والرأى والقرار، فتسود مرحلة فيها هدر للشورى وهضم لمكانة المحسنين، فينزوى أهل الاجتهاد الذين لا حياة لهم بدون حوار وأخذ وعطاء.

ولنأخذ عبرة من قصة آينشتاين مع علماء فيزياء الكم، فإنه العبقرى الأشهر الذى بهر العالم أجمع بنظرياته، وكان هو الذى دفع فيزياء الكم بعد بلانك وأحدث فيها نقلة مهمة كما رأينا من نواحى تاريخها، لكنه وقف عاجزًا عن إدراك صواب فى نظرية الكم فى طورها الثانى بعد الابتدائى اتضح لغيرة ممن هم دونه فى الذكاء ببساطة، وظل يعاند ويأبى حتى موته، فكان رجل مرحلة، لم يتكيف لمتطلبات مرحلة لاحقة.

ترى ماذا كان الحال لو منع الحياء علماء الكم أن يجهروا بمخالفته، وأذهلهم إنجازه العظيم فى المرحلة السابقة عن طلب مرحلة جديدة؟

لكن منهجية العلم التى درجوا عليها منعتهم من تفويض الأمر إليه وجادلوه وقارعوه، وحمى وطيس الافتراضات والبراهيم والممارسة المنطقية، ونطق الفم، فزال الهم، وانفتح باب التوحيد، مؤذنا بحقبة حضارية جديدة تتأله، من بعد دهر من العقوق والشرود والمادية. ومثل هذه التجربة، ومفادها القياسى: يلزم أن تكون درسًا متميزًا فى التربية الدعوية، تعلمهم السلوك المنهجى السليم، والعواقب الحميدة التى ينتهى إليها صاحب الخطو المنهجى، الذى لا تبهره عاطفة شوقية ودية عن التزام الحقائق الموضوعية والأسلوب الشرعى المعدل فى وصف القيادة والجندية وعلاقات الارتباط بينهما، ولا ينبغى أن نعطى فلتة خيرية شاذة امتياز الفوقية الهادرة للحقوق الإيمانية والشرعية لأهل الحل والعقد وعموم الدعاة، وإذا أحللنا المعانى الأصيلة العرفية فى نفوس الدعاة عبر منهجية تربوية واضحة، تشكلت خلفية تأبى

إلغاء الشورى وترفض تعطيل وصف القيادة الجماعية، حتى لو كان القائد الأعلى فى العلم أوحد وفى المناقب سيدا.

* ويمكن اشتقاق قياس رابع هو توأم الثالث ومكمله، نستله من المؤتمر الفيزياوى الذى عقد فى سولفى فى بروكسل عام 1927 والذى هو مؤتمر مغلق حضره العمالقة الثلاثون فقط: بور، وآينشتاين، وبلانك، ودى بروى، وهايزنبرك، وشرويدنكر، وديراك، ومدام كورى وأمثالهم من أئمة العلم الكبار، وتدارسوا الكم الوليد، وتفرسوا فى المستقبل، وكان حوار، وخلاف، واتفاق، وافترقوا ليبدأ العمل المتناسق واكتال كل منهم من معنويات الآخرين، وبدأ الصعود.

فى هذه الحادثة التاريخية ما يلقننا جملا مفيدة فى التربية الدعوية، وأن من منهجيتها: الائتمار، واللقاء وجها لوجه، واستفزاز الواحد للآخر، وإشعاع عقل على عقل، وإنارة قلب لقلب، والمجابهة المحفزة، والمصاولة، والتحدى، وفرك الذهن، ومأزق المثول أمام العباقرة، ورهبة القرار المصيرى، وإغراء انتصار البرهان ، كل ذلك فى أيام قليلة يتركز فيها التفكير، لينفجر، ويكون الإبداع الجماعى.

كان ذاك المؤتمر يوما مشهودًا فى تاريخ فيزياء الكم، حدث فيه مثل هذا، ثم يأتى داعية بالغرائب، ويدعى أن لا حاجة لاجتماع أهل الشورى، وإنما يكفى أن يسأل القائد بعض أصحاب على انفراد ... ما رأيك؟ ما رأيك!!

وهذا من أعجب العجب، ومن الذهول عن طبيعة النفس الإنسانية وطريقة عمل العقول أو أسلوب انقداح المعانى فى القلوب.

إذًا أين معركة البرهنة، وزين انشغال الحواس بأقصى طاقاتها خلالها؟ وأين فرصة تكامل الحقيقة عبر إضافة كل فرد لحرف منها؟ وأين اكتشاف جذر المسألة فى جعبة أحد، فيؤخذ منه، ويضاف إليه، فيكون التتام؟

لقد كان الكَم فى الكُم، فاستعلن، فومض.

وفقه الدعوة مركوز فى الأعماق، وينبغى أن يستفز ليخرج، فيكون قرارًا، وتعبية، وخطة مرحلية، وإستراتيجية، ومشروعًا حضاريًّا.

إن القائد القطرى مدعو إلى أن يجمع أذكياء الدعاة، وأهل العلم الشرعى، وأصحاب السابقة، والمجربين، ويضع أمامهم مواضيع مسماة، ليتناقشوا فيها، ويخرجوا بصواب يعمم. وليس يكفى أن يجمع لذلك من هو مكلف بعمل أو رئاسة جهة أو لجنة، لأن الداعية اللبق الفقيه قد تمنعه ظروف معينة من تولى الولاية لكن ذهنه يبقى متقدًا.

وكذا المرشد العام للجماعة، مدعو إلى أن يطبق ذلك، فيجمع أبرز مائة داعية على النطاق العالمى كل من أهل الاجتهاد الشرعى، وصاغة الفكر الإسلامى، وبقية الرعيل الأول، وأصحاب التجارب التربوية الدعوية، ورؤساء المؤسسات الإسلامية والنقابات، ومن مارس السياسة، ومن نجح فى التجارة وأنواع النشاط الاقتصادى، ومن انغمس فى الإعلام، وبرز فى التدريس الجامعى، أو مهر فى التدريب الإبداعى، أو تولى وظيفة تخطيطية حكومية أو لدى الشركات الجبارة، مع عميد ولواء كانا فى أركان الحرب، وخاضا المعارك، وضابط استخبارات عريق، مع شاعر وفنان يضيفان لمسات العاطفة والحنان، ثم بطل مشهور، وعقليتان تنطقان بلسان ربات الخدور، ويضيف لكل هؤلاء مراقى الأقطار، ويعقد بهم مؤتمرًا تاريخيًّا يجيب على أسئلة الدعوة الكبيرة ويتفرس فى مستقبلها، ويحدد الكيف والأين، ثم يتكرر المؤتمر بعد سنتين، ثم ثالثة بعد خمس، وبذلك يكون هذا المؤتمر معلمًا بارزًا من معالم منهجية التربية الدعوية ومنهجية الممارسة السياسية، وليس يكفى ما حدث قبل وما يحدث من الاكتفاء ببعث كل قطر لمندوب يركز على حل المشاكل الطارئة، ويبشر بإنجازات فى قطره، أو يعتذر عن تقصير، ثم لا تهمه المسيرة العالمية وما يمكن أن يضيف قطره إليها، وربما كان هذا المندوب أحيانًا ليس من أصحاب لمعة الفكر أو المبادرة القيادية، وإنما هو مجرد عنصر تنفيذى سمحت أوقاته بالسفر ولم تسمح أوقات الآخرين ممن هم أعلى كعبًا منه، لعدم التفرغ.

هذا وإلا فإن فى الساحة بين الدعاة همسًا عن ترهل وهدر وتعطيل للطاقات، وارتجالية، ونفس تبريرية، وإفتاء بالمرجوح فى زمان اقتراب الفتوح.

نعم بعض الأقطار بذلك فأحسنت، لكن الكتلة الإسلامية العالمية مازالت لا تتقاسم الأدوار، ولم يتم بناء الأقنية التحتية الاستطراقية التى تنساب عبرها التربيات والخبرات والتخطيطات انسيابًا سلسًا.

وقد استطعت بحمد الله، عبر تحليلي لمعالم تطور الدعوة الذى لّما ينشر بعد، أن أثبت أن الدعوة كانت ولازالت بخير، وأنه ما مر عليها يوم وإلا وهى فيه أحسن من أمسها، وأنها تقلبت فى مراحل، أنجزت فى كل مرحلة إنجازات مهمة، وتراكم الناتج الإيجابى حتى أوصلنا إلى مرحلة نعيشها اليوم يؤذن لنا فيها أن نمنى أنفسنا بعمل عالمى مشترك يسير واثقًا نحو التمكين السياسى والاقتصادى والمعرفى، والعلوم التطبيقية فيه والآداب والفنون رديفة للعمل الشرعى، وليس أن نُقنع أنفسنا بمجرد لقاء يحل المشاكل ويكبح الفتن.

* **وظاهرة عالمية الإبداع العلمى** تلج من باب خامس تبشر بعالمية العطاء الدعوى، فقد رأينا أن انتصار نظرية الكم صنعه دانمركى، قاد رهطا فيهم الألمانى والفرنسى والنمساوى والأمريكى واليابانى والهندى والباكستان، وغيرهم، وكذا الأفكار الإسلامية والإضافات الإبداعية والاجتهادات التى تحل العقد، والبصائر التخطيطية، والأمثال العملية، يمكن أن تثريها مجاميع الدعاة الممتدة عبر القارات، لا يحتكرها عربى، مع أنه مظنة أن يكون الأكثر مساهمة فى ذلك؛ لأن الله تعالى اختار العربية لغة لشرعه، ولأن بذرة الدعوة الأولى كانت عربية، كما لا يحتكرها تركى، مع وفر المحفزات المعنوية له، واستناده إلى المناقب الجهادية فى التاريخ العثمانى القريب، ولا هندى، رغم استناده إلى عاطفة عارمة تحلت بها أجيال الهنود.

بل يذهب الظن الحسن إلى أبعد من هذا، فيترقب الإبداع لا من زنجى فقط تعصره آلام أفريقيا فيتصبب صوبًا، أو إندونيسى وماليزى ينتصبان لتحدى الغزو الوثنى والتسلل الغربى، إنما يترقبه حتى من أبناء الأقليات الإسلامية المظلومة التى تئن تحت وطأة الجاهلية الجهلاء، بل حتى من داعية مسلم كمبودى كان الطاغية الشيوعى بول بوت قد قتل من قومه المسلمين معظم الرجال.

الإبداع عندنا عالمى، ولا اتكال على العرب بدعوى أن أصل الدعوة عربى، وكل الدعاة، فى جميع القارات، مدعوون للإضافة والابتكار وإثراء الفكر وتجويد التخطيط واكتشاف أسرار السياسة ومدارج الحضارة، ولنا ثقة بالجميع، وقصيدة الانتصار أممية الأبيات، يضع كل شعب مسلم حرفًا فى قافيتها الموحدة.

* **الوجه السادس للتشابه:** أن العلم يرتقى بالأداء الدعوى ويقويه ويمنحه تأثيرًا مضاعفًا، ويخفف الأعباء، ويقلل الجهد اللازم، ويجعل النتائج أسرع، كل ذلك قياسًا على الظاهرة التى رصدها من راقب تطور الحياة، فرأى أن الفيزياء، وفيزياء الكم بشكل أخص، هى التى منحت الحياة الحاضرة عنصر التمدن، ووهبتها الراديو والتليفزيون والكمبيوتر والليزر والمجاهر وأنواع الأشعة الطبية وغير ذلك من المخترعات التى اختصرت الزمان وربطت المكان، وركزت سيطرة الإنسان.

ولو أحسن القادة إسالة العلم ليصب فى المحيط الدعوى فإن سيطرة الدعاة على أَزِمَّة الصراع السياسى والاقتصادى والإعلامى والتربوى والاجتماعى ستكون أشد وآكد، وينبغى ألا يكون هذا التمنى مجفلاً للقادة، فإن الله لا يكلف الأنفس غير وسعها، ولسنا نطلب من القائد أن يكون فيزياويًّا ومتتبعًا لآخر المخترعات، لكنه الوعى منه نطلبه، فقط ليس غير، بحيث يأذن بهذا المنحى العلمى فى تطوير الأداء الدعوى، ويستوعب معنى ذلك، ويتخذ القرار، فيتولى الصف القيادى الثانى- وربما الثالث- تنفيذ ذلك، وتوضع من قبل اللجان المختصة خطة خمسية لنقل التكنولوجيا العالمية إلى المجموعة الدعوية المركزية وأجنحتها الجهادية والإعلامية، وربما كان عالم الكمبيوتر المتقدم ومنظومة الاتصالات واستخدامات الليزر أهم ما هنالك.

وكما قدمت الفيزياء المتقدمة حصة كبيرة من الأرباح الاقتصادية للدول الصناعية الكبرى وثرواته القومية، كما قال الراصدون، فإن الفيزياء وجميع العلوم بإمكانها أن تمنح الدعوة ربحًا غير مباشر، فى صورة تقليل النفقات، ومضاعفة الضغط، وتعميم المحلى ليكون عالميًّا، واستيراد الكفايات العالمية لتكون محلية، مع تعاضد المؤثرات، وتوضيح المؤشرات، وبإمكانها أيضًا: تصغير حجم التنظيم المركزى، بحيث تتعاظم السيرطة تبعًا لرقى المستوى النوعى والتدريب التكنولوجى، وتكبير حجم الأجنحة والواجهات والمؤسسات، بحيث تبقى مشدودة إلى المركز عبر التنسيق والطرائق المحورية فى العمل، التى تتخذ من قضية معينة محورًا يربط نشاط عناصر متنوعة، أو يتخذ من مؤسسة ما مفصلاً لخدمة قضية أو قضايا عديدة، فيتماثل الأداء أو يتقارب، وتنطلق جهودنا التربوية والإعلامية والسياسية عندئذ من نظرية واحدة ومفاهيم متجانسة، ويستطيع أى داعية خبير أن يخدم بخبرته أطرافًا عديدة فى نفس

الوقت، أو يستمزج آراء خبراء مثله فى أقطار أخرى، مثلا. كما تستطيع نسخة مصورة على قرص من أرشيف مركز إسلامى معين أن تقدم أولاً بأول معلومات جاهزة إلى أى مركز آخر أو صحيفة مثلا، فضلاً عما فى مجموعة مصادر خدمات الإنترنت الإسلامى العام والدعوى الخاص من تكامل يبني ببطء، لكن برسوخ، خلفية واحدة، وعقلاً واحدًا، وشعورًا واحدًا، مهما تباعدت الآفاق ونأت الديار.

أما من أين يأتى مال هذا التطوير التكنولوجى بعد إذ انتسب الدعاة لخط الفقر بفعل أوهام بقايا التصوف الابتداعى العالقة - فهو حديث من أقلق قلبه، فهم وجال، وليس هو حديث من استراح أو أرهبته القصص فجلس، وأنغام الرنين الذهبى لها سطور أخرى.

* وتقود هذه الأقيسة الستة جميعًا إلى مفاد سابع مهم يصدع بأن منهجيات العلوم كلها تصلح أصلاً للقياس، وكذا كل منهجيات الأداء الحيوى العام فى عوالم السياسة والاقتصاد والحرب وغيرها.

وعليه فإن منهجية التربية الدعوية، ومنهجية كل أداء دعوى آخر، كما علمنا بعض خبرها من انعكاسات منهجية الفيزياويين، فإن بإمكاننا أن نعلم أخبارًا أخرى منها وقواعد ومسارات عبر منهجية أركان الحرب، وأعمدة السياسة، ثم عبر منهجية الحركة الساكنة للأصنام الذهبية، الناطقة الخرساء، الذكية البلهاء، ومن لا يعرف الجاهلية: لا تتم له معرفة الأيمان.

وبإمكاننا أن نأخذك فى جولة طويلة نتتبع فيها معا وجوه التماثل، ولكننا لا نحبذ تعليمكم كل شىء بالتلقين، فتبرد حواسك، وتجنح نحو اتكالية لا نرضاها لك، وقد أنشأنا كتابنا هذا لتخليصك منها وتهجيرك إلى أرض الإبداع، وقد أتيناك بشواهد الفيزياء، فانح منحاها وحلل بقية ما هنالك تجد القياس وافرًا، واسأل نفسك، واعقد مع إخوانك فى لجنتك أو أسرتك مؤتمرًا لاكتشاف أطراف التشابه.

إنما نمنحك حرفين واسمين وفعلين، مفترضين أنك نصف دؤلى، والعلى على:

فقانون العرض والطلب فى الاقصاد: هل له صدى فى العمل الدعوى؟

ووصية أهل الاستثمار أن لا تضع جميع بيضك فى سلة واحدة هل هو موعظة؟

obeikandl.com

والشركات الاحتكارية العابرة للقارات ألا تحرضك؟

وعادة السياسى أن يتغدى بخصمه قبل أن يتعشى به هل تنذرك؟

والتعاون المرحلى، أو التحالف الإستراتيجى: هل يسوغ اقتباسهما؟

وفى الحرب: ألم تر أن توسيع الجبهات يسبب ضعف تركيز الهجوم، وأن إطالة خطوط الإمداد تهددك باحتمال قطعها فتكون فى مأزق الانفراد؟

وكذا الهجوم: أليس هو خير وسيلة للدفاع؟

وإبقاء قوة احتياطية: أليس هو علاج كل مفاجأة؟

وحركات الالتفاف أليست أخف من ثقل تبعات المجابهة؟

واستثمار الفوز بالملاحقة والإجهاز أليس هو ثمن عاجل يسير يعفيك من دفع آجل كبير؟

ووزن المعنويات والعاطفيات الروحيات أثقل أم الحديد؟

والهدم أسهل أم البناء؟

والمشروع الحضارى أجدى أم المغامرات؟

والتحديد والتوصيف والفصيل أصدق أم الإطلاقات؟

أجب عن كل هذا، فإن أردت المزيد أرسلت لك خمسين سؤالاً أخرى عبر البريد الإلكترونى الآتى:

E.mail @ ya hatha: yekfeena sethajaten, kun thekyya

عشارية التطور الدعوى

اضطَّرنا عامل الربط إلى قياس بعض المظاهر الدعوية على بعض جوانب منهجية رهط الفيزياويين كما رواها د. محمد التكريتى آنفا، فعجلنا الإدلاء بالرأى لئلا تفوت المناسبة بين المعنيين.

لكن الانتهاء من سرد تلك القصة العلمية الممتعة يضعنا فى مقام الرائى لمنظر شمولى من مناظر حركة الحياة وعمل العقل الإنسانى فى حقبة معينة بين أهل تخصص واحد، مما يمكننا من صناعة مشهد دعوى أيضا مستنبط من ذاك المنظر البديع، ومن خلال تجسيم عناصر هذا

opeikanal.com

المشهد الدعوى ووضعها فى أماكنها المناسبة فى عرصة المشهد وفقًا لذوق فنى أكسبتنا إياه التجربة وشدائد المعاناة: تتبدى لنا منهجية نقترحها تشكل جانبًا من قوانين التطور الدعوى، يعلم الداعية بعض خبرها، لكن بشكل متفرق، ونمنحه إياها هنا مجتمعة، وربما مرت معنا بعض معانيها فيما سبق، لكنها تأتى هنا مقرونة بشرح آخر، ومن الواضح أن هذه المنهجية للتطور الدعوى العام تستلزم تلقائيا ما يقابلها ويلزمها من منهجية التربية الدعوية، وهذا هو موضع تجانسها مع السياق العام للكتاب.

* **أول ذلك:** تتابع الخطوات، وظاهرة المرحلية، والبناء على ما سبق فى تدرج طويل النفس، وليس أخذ الأمور من خواتمها وتجاوز التتابع الضرورى والتسلسل المنطقى، وكل ذلك هو مفاد التخطيط، وقد جاوز فقه الدعوة هذا المعنى، وأصبح مغروسًا فى أعرافنا، مع أن التزام بعض الدعاة به مازال أضعف ما ينبغى، لروح تقليدية سابقة، أو لضعف اقتباس فنونه، ويقابل ذلك «قلق تخطيطى» عند آخرين من الدعاة، سببه غرام بالتخطيط عارم، وحماسة له زائدة، فوقعوا فى استعجال، وطلبوا المثال، وهو عسير، فأخرجهم ذلك إلى تبديل الخطط وعدم استقرارها طويلاً، والقفز من مذهب تخطيطى إلى آخر، فى تحول سريع، وليس سبب ذلك سوى قلة الخبرة التخطيطية، مما يفصح عن أن روح التخطيط تحتاج إلى تخطيط، وإلى تؤدة وعقلانية أكثر من احتياجها إلى تحول سريع وعواطف جياشة. لكن اللافت للنظر عندما استعرضنا تاريخ الفيزياء أن العلماء لم يجتمعوا على خطة مدونة وجداول عمل ملزمة، وإذا كانت تجمعهم خطة قطرية تضعها الجامعات مثلاً فإن خطة أوسع تجمعهم على نطاق عالمى لم تكن موجودة، ولكنهم مع ذلك نجحوا، وكانت آثار المنهجية واضحة فى أعمالهم، مما يدل دلالة جازمة على أن قضية التخطيط وما يتفرع منها من منهج وقواعد وسلوك وحقوق وتكاليف قد تحولت عندهم إلى سليقة ونمط تلقائى عند الأداء، لأنهم نشئوا على ذلك بين ظهرانى أساتذتهم، وسمى لهم النظام ما لهم وما عليهم، وفى هذه الظاهرة ما يعظ الدعاة أيضًا بأن التخطيط والمنهجية أبعد جدًّا من كونها وثائق مدونة ربما تستطيع قلة نابهة من الدعاة وضعها وحمل الدعاة على الإذعان لها، إنما هما مفاهيم وقناعات وأنماط أداء وسلوكيات تنغرس فى نفوس الدعاة عن طريق التربية أولًا، ثم عن طريق طول الممارسة ثانيًا، مما يعنى أن النضج التخطيطى يلزمه زمن كى يتحول إلى سليقة أو عادة أو طريقة تلقائية،

ويكون فى أوله أضعف من آخره، وبينهما نمو تدريجى له، كما يعنى من ناحية أخرى أن القيادة الواعية لو تميزت بجودة تخطيط فإن جمهور الدعاة من حولها قد يخذل تخطيطاتها وطموحاتها إن لم يكن الوعى التنفيذى لتلك الخطط وسافرًا، إذ لابد من إيجاب وقبول، ولا بد أن يكون المحل قابلًا لأن يمتلئ بالمضمون، بل يلزم أن يكون لدى جمهور الدعاة نوع من الوعى التخطيطى العام أيضًا وليس مجرد الوعى التنفيذى، من أجل أن يفهموا مغزى الخطة وتتكون عندهم قناعة بمذهب القيادة ومنحاها، فينفذوا عن رضا وطيب خاطر وليس عن التزام بالطاعة فقط، بل التنفيذ يلزمه اجتهاد أيضًا كما أن أصل التخطيط يلزمه اجتهاد، وهما اجتهادان متكاملان متلازمان بهما معا يبدو الأثر، وكل هذا يوجب أن تكون التربية على معانى المنهجية والتخطيط معلمًا بارزًا من معالم التربية الدعوية، بينما يسجل واقعنا التربوى الحالى نوع قصور فى ذلك، فإن أقصى ما يوصف به النجاح التخطيطى الحاصل أنه صادر عن نخبة من الدعاة ولم يصل بعد إلى أن يكون وعيًا عامًّا فى أوساط الدعوة.

القضية بإيجاز إذن: إن روح التخطيط تحتاج إلى تخطيط، وأن تعميم المنهجية يحتاج إلى منهجية.

* **أمر ثان:** وجوب تأسيس روح الفريق فى أداء الدعاة، لا روح التفرد وشائبة الاستئثار بالإنجاز والاستشراف لاحتكار الفضل، لكن روح الفريق توجب أن يكون انطلاق الدعاة من مؤسسات ومراكز بحوث تتيح الجماعية فى العمل، كل ذلك قياسًا على ما كان عليه أمر أهل الفيزياء، إذ اندثرت الأزمان التى كان العلماء يؤدون أدوارهم فيها على انفراد، وأصبحت البحوث الحديثة تعتمد على فريق من الأقران ربما يتحلقون حول أعلم منهم له تميز وأستاذية، وربما لا.

إن الحوار بين أهل الاختصاص الواحد أو المتقارب هو الذى ينضج العقول، ويستفز طاقات التفكير، ولابد أن ندرب الدعاة على هذا الحوار، والأخذ والعطاء والقبول والرد، وأن نعلمهم روح استقبال النقد بصدر واسع لا مكان فيه لنقطة ضجر قد تتجمع حولها أوساخ أخرى تغرز فيهم طبيعة الزهد بعطاء الآخرين.

والذى نفهمه أن هذا المنحى فى الأداء ضمن فريق لا يعارض منحى صناعة الحياة، الذى

يبدو لأول وهلة أنه يعتمد على تجويد أداء الداعية ضمن حقل من حقول المعرفة أو المهن أو الفنون، لأن المماثلين لكل داعية فى الفن الذى اختاره لنفسه هم أقرب الناس إليه فى الفهم والتوجه وطبيعة العواطف، ولذلك يلزمه التنسيق معهم، والتشاور، وتبادل الخبرة، وتقاسم الواجب، وهذا هو المقصود من عمل الفريق، فمجموعة الوعاظ تفعل ذلك مع أن لكل منهم وجه إبداعه الخاص وبلاغته، وكذا مجموعة المحاضرين الشارحين للفكر الإسلامى أو أى مجموعة أخرى.

بل ذهب فقه الشيخ القرضاوى إلى أبعد من ذلك، فدعا فى أكثر من موضع فى كتبه إلى تقاسم التنظيمات العديدة للدعوة الإسلامية للواجبات بعد ما رأى صعوبة أو استحالة أو عدم جدوى ذوبانها فى تنظيم جامع واحد، ورأى صواب تخصص بعضها فى أداء أدوار علمية أو اجتماعية معينة، فى إطار من الحب الأخوى والتنسيق ينفيان أو يقللان الآلام التى عصرت قلب أستاذنا الشيخ عبد الله قادرى الأهدل فجعلته يبثها فى آخر كتابه «الإيمان هو الأساس» ويشتكى ويتوجع من تفرق الجماعات الإسلامية وتضايق بعضها الذى يركز على أهداف جزئية من العمل الشمولى، ويتعجب لشدة إنكارها على من يجتهد ويتأول فى أبواب السياسة بخاصة، مع أن القضايا خلافية ومجال الاجتهاد فيها وارد ومستند إلى إفتاء الأئمة القدماء.

التشنج بدعة، وإن من منهجية تربيتنا الدعوية أن نعلم الدعاة العمل المشترك، والتحالف مع الجماعات الإسلامية، والسماحة، والدعاء بظهر الغيب فى وردهم لكل محسن من المسلمين يضيف طريفًا أو يذكِّر بتليد، لأنه ينشر عبير مسك تزداد به طيبًا نفحات وردنا، وهو خير من فاسق حدّاد يلوِّث البيئة بكيره ويزعج مجلسنا إذا تلاقت الأرواح على تلاوة الآى أو استماع الحكمة.

* وثمة قياس ثالث يفيد بوجوب اعتماد العمل الإسلامى على تخصصات متكاملة، بعضها يعضد بعضًا ويتمه ويكون من لوازمه، كالذى حدث فى النهضة العلمية العامة التى قادت الثورة الصناعية الأولى ثم ثورة التكنولوجيا المعاصرة، فقد تكاملت الفيزياء مع

الكيمياء مع الرياضيات مع علوم الحياة والجيولوجيا، مع الطب، تحت مظلة فلسفية وإدارية واقتصادية، فنتج التطور. بل حتى فى تاريخ فيزياء الكم التى جعلناها مثالاً تفصيليًّا تحليليًّا، لم يكن لها غنى عن الرياضيات، وحركتها فى الأول افتراضات فلسفية، وأنتجت فى الآخر آثارًا فلسفية عميقة ربما تنعطف بالتاريخ البشرى انعطافًا حادًّا تتغير به العلاقات والمفاهيم والعقائد تغيرًا جذريًّا يعاود الاتصال ببدايات النبوات الأولى وخاتمتها.

وكذلك الأمر الدعوى الناجح النافذ: يؤدى إليه فقه شرعى، مع علم إدارة، مع فنون سياسة، مع قواعد حرب، مع تأمل فى الكون والآفاق وعجائب الخلق، مع فيزياء وتكنولوجيا، فى إطار من التوحيد والطريقة الفلسفية فى الجمع والتأصيل والتدليل.

وإحلال هذا التكامل العلمى فى الأداء الدعوى هو واجب التربية، لكن ذلك أوسع من أن يكون مجموعًا فى مجموعة الكتب والفعاليات التى اصطلحنا أن نسميها بالمنهج، إنما هو انتباه عام يبدأ من إشارات واضحة يلزم أن تضمها الخطة الإستراتيجية، مرورًا بالخطة المرحلية، نزولاً إلى الأداء الموسمى ثم اليومى الذى تديره أوامر قيادية متجددة متعاقبة تبعًا لحاجات الساحة، وخلال كل ذلك يكون الديدن: تشغيل الطاقات العلمية المتنوعة التى يملكها الدعاة عبر دورات، ومحاضرات، ومقالات صحفية، وكتب تنشر، وأفلام فيديو، واقتباسات بتصرف من النتاج العالمى، فيولد كل ذلك وعيًا وقناعات ورؤى وفراسات وآثارًا تربوية تضرب عمقًا فى وجدان الدعاة وتفكيرهم وأذواقهم وطرائق سلوكهم من خلال قابلية النفس الإنسانية للتأثر بالمسموع والمنظور، وبخاصة إذا تم التفنن فيهما، وسوف يأتى كل ذلك ببطء ويزحف بدون ضجة، من حيث لا يشعر الداعية المتأثر ولا الخارج المراقب، فيكون التطور؛ لأن عملية التأثير تكون قد تمت فى محضن سلمى حضارى متدرج فى التقدم، على الطريقة الترسيبية، وبدبيب خافت، وليس عبر طريقة تركيزية سريعة الورود سريعة الانتهاء والجلاء هى أشبه بالحملات الإعلانية الترويجية المؤقتة التى تلغيها حملة منافسة أكبر منها وأنصع بهرجًا وألوانًا، وهذا المعنى فى الإحلال البطىء المسترسل المتحلى بالصبر والتؤدة هو المعنى المنهجى الذى نقصده وتكلف به القيادات ولجان التربية.

أستاذية الأقطار المخضرمة

* **ومن باب رابع** نرى أن عامية العلم وعدم انتسابه لقطر أو شعب تؤدى إلى قناعة تامة لدينا بعالمية العطاء الدعوى واعتقاد أن كل مسلم فى أى بقعة من أرجاء الأرض يمكنه أن يدع ويضيف جديدًا يفيد كل الدعاة فى العالم، ليس من باب أن الصواب يفرض نفسه فقط، بل أن نفرح بذلك، ونرى كل إنجاز كأنه ملك لنا، ونفهم أن الفتح الذى يأتى على يد مستضعف فى سريلانكا، أو أفريقى: إنما هو إشارة قدرية، وأن الله تعالى يعز من يشاء بالإيمان وعمق التعبد، فتنفتح له نافذة يطل منها على الحكمة فيستنشقها فتسكن قلبه فتنطق لسانه بها.

لكن عالمية العلم لم تكن منفصلة عن الأسباب المنطقية الواضحة فى حركة العلم، فوجود المختبرات المتقدمة مثلا، والمال، والبيئة المساعدة من الحرية والنظام والاستقرار، وعدد من المختصين والخبراء – هى أسباب تجعل انبثاق الاختراع والاكتشاف العلمى متوقعًا وسهلاً، ومثل هذه الأسباب تتوفر عادة فى الغرب، ولذلك كان الغرب قائدًا لبقية أقطار العالم، مع أن عقول البشر متقاربة، والذكاء عام لا يحتكره شعب.

وهذا الحال منعكس على الوضع الدعوى أيضًا، فمع أننا نقول بعالمية العطاء الدعوى، إلا أن توفر الجامعات ومراكز الدراسات فى أقطار معينة، ووجود علماء فيها كبار، وتقادم الدعوة فيها وتركز الخبرات وعمران الجانب التخطيطى، والإمكانات المادية، والنبضات العاطفية، كل ذلك يجعل من تلك الأقطار أقطارًا قيادية تقود المستضعفين والأقطار الأضعف منها، من دون تكبر ومنة وفوقية وحقوق استثنائية، ولكن كظاهرة حيوية وقانون فيزياوى بموجبه تنتقل الحرارة من الجسم الحار إلى البارد، ولولا ذلك لحصل الاضطراب وفسدت الأرض، وفى مثل هذا المعنى ما يوجب على الأقطار المبتدئة والمحرومة أن تتقن التلمذة للأقطار الأقوى، وتحرص على التبعية لها وفق قاعدة الولاء، لأن هذه التبعية إنما هى مرحلة ضرورية فى سلم التطور لكل قطر صاعد، كما أن فى هذا المعنى ما يوجب على الأقطار القائدة أن تتقن الأستاذية من جانبها، عبر الرفق والحنان والتواضع والعواطف الرقيقة والتعبد بفعلها وابتغاء وجه الله، وبذلك سيدور العطاء الدعوى فى دوائره التامة، ويسير فى قنواته الطبيعية، فتتوحد الأفكار والمفاهيم والتجارب وأنماط التخطيط وأساليب النشاط. ولأن عمليات العطاء

والأخذ تجرى فى ساحة واحدة تحت سقف تنظيمى واحد فإن أى اكتشاف جديد أو تجريب طارف سيجد الطريق سالكًا كى يكون عامًّا، حتى لو كان فى مكان ضامر هو مجرد نقطة فى الخارطة، كجزائر المالديف أو واحة فى النيجر، وسيتحول التلميذ إلى أستاذ، والمستورد إلى مصدر، إذا التزم عرف الإيمان، وبذلكم يدلل على أن العطاء الدعوى عالمى، لكن من شرطه وجود أقطار قائدة، تستفز الطاقات وتفجرها، ويشاء الله أن يجعل من ماليزيا وإندونيسيا قيادتين لجنوب شرق آسيا، ومن تركيا قيادة لآسيا الوسطى، ومن السودان بوابة لأفريقيا، ومن العراق مفصلاً لإيران وكردستان، ومن باكستان مفتاحًا للقارة الهندية، والكل فى رحاب الإيمان يرفل.

سبقنى سنتين فصار صاحب عقلين

* **القياس الخامس:** توالى الأجيال، وأن كل جيل يأخذ من الجيل الذى سبقه، وأن كل جيل دفع العجلة قليلاً وسيّرها إلى الإمام، وكذا اجتماع علوم الأمم ورفد بعضها بعضًا، والاقتباس من الآخر، كما فعلت أوربا حين درست علوم المسلمين فى الأندلس .

هذا... أو تهمة التنكر للسلف، وبخس حق السابق.

وتتجلى هذه الصلة السلفية عندنا تمامًا حين نستعرض معالم تطور الدعوة، فنكتشف أن موعظة فاه بها الحسن البصرى، أو عمر بن عبد العزيز، مازالت تشكل فى تربيتنا ركنًا مهمًّا نطيل شرحه، وأن طريقة للثورى أو الفضيل قد استحالت إلى مادة فى منهجية التربية الدعوية، مرورًا بأحمد وأصحابه، وأرهاط المجاهدين مع عماد وصلاح الدين، ولبثا مع ابن تيمية وابن القيم، وانتسابًا لمحمد الفاتح ثم شامل، وإذعانًا لمحمد بن عبد الوهاب فى إيجازه العقيدى المتكامل، حتى استلمها حسن البنا باليمين، وحصل الانفجار المعاصر العظيم.

هذا الاحترام للسلف القديم والحديث أصل أصيل فى منهجية التربية الدعوية، ليس نأتيه كخلق ووفاء وتبرك فقط وكل ذلك حق وواجب، ولكن نأتيه مأتى التفقه والتلمذة والاعتراف بالسبق واعتقاد أن الله تعالى وهبهم صدق النوايا ونقاء السلوك، فبورك فى فركهم لعقولهم، وانبثقت الحكمة ثرة من بين أصابعهم، ليس الأول منهم والأوسط فحسب، بل حتى الآخر الذى عاش وأدركناه يوم كان للحياة بقية من جمال اندرس فى أيامنا الحاضرة مع

استيلاء صخب التمدن واختلاط الصيحات وفساد الأذواق وتلوث البيئة واسترواح الثقات بالترهات.

وقد كان توريث الفكر والمفاهيم والوعى يجرى فى سلاسة بحمد الله ومازال، رغم هذه القبائح الغازية، وأغلب جيل الصوة الإسلامية الحاضرة قد اكتشف بسرعة تمهيدات الأجيال السابقة لطريقه، وولد هذا الجيل ثريًّا، ولم تضطره الأيام إلى عصامية، حتى جاءت أيام الأفغان وبشاور، فبرزت بدع التعالى والاستغناء والتنكر والتمرد والذاتية والإدلال والادعاء عند نفر أطلق الواحد منهم طلقتين وبات فى العراء ليلتين، فصار يعتقد أنه قد اجتاز القنطرة، وأنه أرفع من الجلوس بين يدى مجرب، وأنه قائد تام الأهلية والصفات، وما كان كل ذلك إلا لأن هؤلاء الشباب ــ رغم صدق توجههم وعمران جانب الإخلاص فيهم ــ لم يمروا بالتسلسل التربوى الذى تتيحه الحياة الدعوية، ولم يتدرجوا فى حيازة المعانى وفق منهجية تجريبية على يد أساتذة قد علمتهم المعاناة من قبل الكثير من دروس الحياة ووضعتهم فى سير موزون يزيده فقه الدعوة وإفتاء القدماء اتزانًا.

البدعة عند نفر، والسواد الأعظم تجمله البراءة والآداب، لكن من شأن النشاز أن يلفت النظر إليه، مثل نقطة سوداء فى محيط أبيض، لذلك يجب أن تحتوى منهجية التربية الدعوية مبدأ الانتساب للسلف والوفاء للأجيال المتعاقبة والتلمذة لمن سبق سنتين وعانى فاطلع، إذ ليست مكابدة التفاصيل اليومية لعمل الدعوة اليومى السلمى فى صراعها مع الأفكار المنحرفة والجاهلية والجاهليين بأقل شأنًا وأجرًا ومكانة من مكابدة العدو فى ساحات الجهاد، ولسنا ننكر فضل شباب جاهد، أو نتقدم بين يدى الله فنزعم مزاعم تقلل شأنهم، بل الله يتقبل عمل الصالحين، إنما ننكر تعاليهم على التدرج، وعلى قوم يرون للجهاد شروطًا تسبقه.

همس ... مر...!

* وهذه الظاهرة تسلمنا بالتالى إلى قياس سادس به نفهم أن قضيتنا الإسلامية قضية حضارية، تستلزم مشروعًا حضاريًّا، وهى أبعد من كونها مجرد وصول إلى الحكم، وأبعد من كونها مهمة علمية، أو عملية إغاثية، أو إصلاحًا اجتماعيًا، وإن كنا نسعى إلى كل ذلك.

لقد رأينا عند استعراض تاريخ العلم والفيزياء أن تلك الجهود وردت ضمن سياق

حضارى واضح، فقد كان هناك حفظ حقوق الإنسان، وكانت ثم حريات وشورى، وقوانين يقف الناس أمامها سواء، كما كان هناك حفظ براءة الاختراع، والجميع يعمل فى ظل إدارة تتفهم قضية البحث العلمى ومستلزماته وتمويله، والحياة العلمية تعادلها حياة عاطفية يتكفل بها الأدب والفن، والتحرك يستند إلى قاعدة معرفية عامة متراكمة، وللإعلام دور قوى فى ترويج المشاريع العلمية وإقناع اناس بها وحشدهم لتأييدها، ثم القضاء مستقل عن نفوذ الحاكم، وفرص الدراسة متساوية، فى مؤثرات أخرى تجعل نمط الأداء الحضارى حاضرًا.

وعملنا الإسلامى عليه أن يقتدى بهذا النمط، فيقدم للناس أدبًا إسلاميًّا، وفنًا إسلاميًّا، ووعيًا حقوقيًّا، ودراية سياسية، ومعرفة إسلامية تركز على تحليل التاريخ ودلائل التوحيد ونقد الفلسفات، ثم يقترن كل ذلك بتدريبهم على سلوك أخلاقى رفيع متلازم مع تعبد وشمائل إيمانية، ودفعهم إلى حياة اجتماعية تعاونية عبر محاور معينة وجمعيات ومراكز ومعاهد، مع نشاط اقتصادى يحفظ الدرهم فى الأيادى المتوضئة، وإذا انتظرنا سنوات طويلة فإن جيلاً عريضًا من المتأثرين بكل ذلك يكون قد وجد، فيتشكل به توجه قوى له زخم ضاغط، وعندئذ فقط يتدخل الجهاد فى إقرار الأمور إن لم يتح الظالم تنافسًا سلميًّا متكافئًا، لكن من بعد صبر وإعذار عدة مرات على فترات، والمفروض أن تتخذ تربيتنا منهجية مترابطة الحلقات تقوم بتفيهم هذا المنطق التخطيطى للدعاة ولعموم جيل الصحوة.

وبهذا نغاير نظرية بن لادن التى تلغى هذه المقدمات وتأخذ الأمور من خواتمها، وتقلب التسلسل وتكتفى بالقلة، وما هى بنظرية ولا لها مع قواعد التخطيط نسب وقربى، إنما هى آهة مكبوت مظلوم انطلقت بعنفوان يتيحه المال الذى فى يديه، فاضطربت الساحة، وتضرر بها المسلم قبل الكافر، وتولد من جرائها تعكير على العمل الدعوى المتلزم بخطة بعيدة المدى، بعيدة النظر، حضارية الهدف والوسيلة، حتى إن دوائر الاستخبارات العالمية والمحلية تحاول بجد أن تستمر هذه الظاهرة البنلادنية لما لمسته من فوائد هذا التعكير على العمل الشمولى، كما أن استمرار هذه الظاهرة يتيح لها الاستمرار فى سياسة الكبت والقبضة القوية.بعدما تعرت سياساتها الأمنية أمام عقلانية النشاط الإسلامى الهادئ ومنهجه السلمى، وهذا واضح جدًّا فى الجزائر وغيرها، حيث اختلطت أوراق العنف بأوراق مزورة على العنف، وصار تزوير العنف أحدث صيحة أمنية.

على صهوة الفيزياء نغزو

* لكن هذا الهمس المر يسلمنا مرة أخرى إلى قياس سابع، لكنه إيجاب حلو، امتزجت زبدته بالعسل بالزعفران، آيته: رؤية أثر العلم فى حركة الحياة وحيازة مراكز التأثير والقوة وتأكيد السلطة والسيطرة والتحكم، وفرض الإرادة، وإملاء الشروط.

فنتائج فيزياء الكم قد خدمت الدول التى رعت مختبراتها وعلماءها، وانظر أثر الرادار عسكريًّا كمثل، وولادة القنبلة الذرية فى مختبرات فيزياء الكم وبين أنامل آينشتاين، ودورها فى استسلام اليابان وركوع العالم، ولا حاجة لذكر مئات الاختراعات الصغيرة، لأنه إذا ثبت الكبير: ثبت ما هو أصغر منه، ثم انظر القفزة الكمبيوترية والليزرية بخاصة ودورهما فى إحلال أمريكا المكانة الأولى فى العالم عبر خطة حرب النجوم، ليس عسكريًّا فقط وما ينتج من انعكاس على السياسة عبر تفوق السلاح، بل اقتصاديًّا أيضًا وما نتج من ذلك من تسويق واسع، بل نفسيًّا والانتصار ببث الرعب أيضًا، بل ثقافيا والترويج للنموذج الأميركى والعقل الأميركى والذوق الأمريكى أيضا، ثم انظر التفوق العلمى الإسرائيلى كفرع لذاك، وما أدى إليه من تطبيع، وما سيؤدى إليه التطبيع من رعب واستلاب ثقافى.

وهنا درس بليغ لدعوة تريد أن تعتبر، ثم لدولة إسلامية تريد تثبيت قدمها، إذ الأيام دول، والعلم سبب واحد من أسباب أخرى وراء حركة الحياة وتداول الأيام بين الناس، وقد تجتمع الأسباب أو تفترق وتتعاكس، ثم القدر الربانى أمضى، وليس التفوق الأمريكى الحاضر بدليل على توقف حركة الحياة، وأن ادعى جاهلها نهاية التاريخ، وعوامل الجريمة والمخدرات وتردى الأخلاق سلبيات تنحت التفوق ولابد، إذ تظل النفس الإنسانية هى المحور الأول لكل حركات الحياة، كما أن دولة يهود ستظل نشازًا وفى ذلك ما يفتح لمستضعف أبواب الأمل الواثق بإمكانية الاستدراك والتملص، ولا نقول بإمكانية المنافسة، خروجًا من الخلاف والجدل.

وحديث تمتين الأداء الدعوى بالعلم، ومضاعفة قابليات الدعوة عبر التكيف مع المخترعات، ومواكبة المستجدات: حديث مكانه الخطة، وليس التربية، ولكن التربية متعلقة به من ناحية أن هذه الخطة العلمية لا يمكن أن تنجح إذا وعتها القايدة ما لم يتفهمها الدعاة،

وتأسرهم حماسة لتنفيذها، والصبر على لأواء العلم، كل العلم، واستيعابه، والخروج إلى نمط جدى فى قضاء الأوقات بالتعلم بدل تبذير الأوقات والاكتفاء بالعاطفيات والشوقيات، وتبدل كهذا لا تقدر عليه إلا تربية عالية المستوى، ذات منطق يقنع الدعاة بجدوى العلم، ويبين آثاره الضاربة فى عمق المستقبل، ونتائج التفوق المنتظرة منه، ومن هنا تكون الدعاية للعلم عنصرًا أصيلاً فى منهجية التربية الدعوية، وهى حديث من صمم على الوصول فسلك، وليس حديث من جنح إلى الراحات فبرك، وقد وضع د. التكريتى نموذجًا لدعاية العلم عبر حبات المعرفة بأنفاس دعوية، وننتظر منه ومن دعاة آخرين إكثارًا.

ولكن كما قلنا آنفًا وسنقول: ليس يكفى فى ذلك تلقين، وإنما هو إيحاء ثم صناعة تيار عام يجرف الدعاة إلى جنة العلم بالحسنى أو بالسلاسل، عبر صحف علمية وأندية علمية، ورحلات علمية، وقدوات علمية، وجامعة مفتوحة علمية، وانترنيت علمى إسلامى، واستعمار إسلامى لمختبرات الجامعات ومراكز البحوث، ومضاربة تجارية ترفد كل ذلك بالمال، والمظنون أن فى حواشى الدعوة وجمهور الهالة المحيطة بقمر الدعوة ألوف شباب ناضج، مستقيم على سمت الجد، يمكنه أن يكون عن الدعاة وكيلاً ويخدم هذا التوجه العلمى وهو ملتذ، ليدع عناصر مفاصل العمل الدعوى منشغلة بما هى فيه من مهام أخرى.

*** ثم الاستنتاج الثامن:** اعتماد العلم بعامة، والإعجاز الواعى للقرآن الكريم بخاصة، فى غرس الإيمان بالله لدى أجيال المسلمين الصاعدة، لتكوين بيئة رديفة للعمل الدعوى، ومحضن لنمو الفكر الإسلامى، وقد شرحنا ذلك آنفًا بما فيه الكفاية، وإنما كانت الإعادة لبيان تكامل هذا التوجه مع التوجهات السابقة وتلازمه معها واعتماده على نفس الوسائل.

لكن نخص بالذكر هنا ما تطرحه فيزياء الكم من وجود تأثيرات تتحرك بأكبر من سرعة الضوء، مما ناقضت به آينشتاين، ودلت آخرالتجارب قرب نهاية القرن العشرين على صوابها وخطئه، كما روينا، فإن هذا الاكتشاف إن عضدته تجارب أخرى واستقر كحقيقة علمية – فإنه سيكون حجة دامغة على الملاحدة الذين يكذبون بنزول جبريل عليه السلام بالوحى فى لحظة، وحركة الملائكة عمومًا، واستجابة الدعاء فورًا، وأمثال ذلك من المعجزات التى يؤمن بها الموحد ويتردد أدعياء العلم فى قبولها، كما أن ما تطرحه نظرية الكم من وجود عوالم متعددة

يعضد أصل الاعتقاد بوجود ملائكة وغيب، فضلاً عما فى العلم عمومًا من شواهد التوحيد والألوهية، وبخاصة ما ظهر فى تجارب فيزياء الكم من نقض حركة الجسيمات لقواعد الإحصاء الاحتمالى.

نصدح بأغانى الحرية

* **وقياس تاسع:** أن الحرية هى أقصر طرقنا إلى تحقيق أهدافنا، لأن الحجة معنا، والإسلام حق، والفطرة مجبولة على التدين، فإذا تساوينا فى الظروف المحيطة بنا مع الأحزاب الأخرى والتوجهات العلمانية فإن الغلبة بإذن الله لنا، ولم تقلل آثارنا غير السجون وسياسة الكبت وقوانين الطوارئ والأحكام العرفية، وغير منعنا من المنابر أو امتلاك صحافة، ولذلك يجب أن نجعل المطالبة بالحريات العامة وحفظ حقوق الإنسان أحد أهم قضايانا المرحلية والإستراتيجية، فنؤلف فى ذلك الكتب، ويتخذها الدعاة محورًا لكلامهم الآخر إذا خطبوا أو صرحوا للصحف، ونقيم لتحقيق هذه الحرية أحلاف فضول مع بقية الأحزاب والمنظمات، وندفع بعض الدعاة للعمل مع مراكز حقوق الإنسان العالمية والمحلية، وأن ننشئ مثلاً إسلاميًّا لها، وأن يتولى الدعاة المحامون إشاعة وعى دستورى وقانونى يوضح أبعاد الحرية وجريمة نقضها والبعد الحضارى لحقوق الإنسان، وما سيتحقق من فوائد لنا عبر هذه الحرية هو أضعاف ما سيتحقق للفاجر الذى يدلف من ثغراتها لنشر فجوره، مما يجعل عامل التسويغ الشرعى لذلك واردًا وفقًا لقاعدة تعارض المصالح.

وما يقوله الأستاذ فهمى هويدى عبر كتاباته من إعطاء قضية الحرية المكان الأول فى العمل الإسلامى، والأخذ على يد المخابرات - هو قول صحيح يشهد له الواقع، وعلى الدعاة أن يذهبوا مذهبه، وأنا معه جملة وتفصيلاً، ولذلك أرى أن يكون من معالم منهجيتنا التربوية - تلقين الدعاة المنطق الشرعى الدستورى والقانونى والحضارى لقضايا الحرية، وأن يعلمهم المنهج أصول الحوار والجدل فى ذلك.

ووجه القياس على مسيرة العلم: أن العلم لم يتفجر ويتوسع خلال القرنين الأخيرين إلا بسبب الحريات وحفظ الحقوق، فى قصة واضحة.

كذلك فى محيطنا الدعوى الداخلى: تلتزم طبقات القياديين والمربين سعة صدور إزاء إبداع

المبدعين، أصحاب التجويد والابتكار إذ قد يكون ثمة خطأ وإغراب وشوائب غرور، لكن النية هى الفيصل ولها الاحتكام، فما علمنا من صدق المبدع ينتصب شافعًا له إذا هفا لسانه، وعلى منهجيتنا أن تعلم الجميع، قادة وأتباعًا، قتل جراثيم الحسد فى قلوبهم، إذ له دبيب خفى أحيانًا، بحيث يرى القرين فرح المبدع بإبداعه، وفرح إخوانه به، فيغار، بل تبقى فى القيادى أحيانًا بقية من هذا الحسد الخفى، فيرى فى صعود المبدع إزاحة له، فيكبته، ويمنعه الحرية المفترضة. ولا تستغرب هذا الكلام، إذ دارنا عامرة بالإيمان بحمد الله، ولا يقودنا غير ثقة، ولكن الشيطان له إغراء وتدليس، ولا يستطيع صرع الثقة عند يقظته، لكنه يترصد أوقات الغفلات.

الإبداع يقود حَمَلة البوارق

* **والقياس العاشر الأهم:** أن تطور العلم وإن أحدثته عوامل شتى، إلا أن إبداع المبدعين كان هو الأهم والعامل الأقوى.

أولئك الأذكياء الفلتات، أصحاب التجرد للعلم، الذين سكنوا المختبرات - هم الذين دفعوا العلم صعدا.

وكذلك دعوة الإسلام، يطورها أذكياء الدعاة، أصحاب الإبداع والاستنباط والاستنتاج والنقد والتحليل، ليس أهل التقليد والنمطية والاستسلام للموروث والقناعة باليسير.

والتربية الدعوية مكلفة أن يكون فى أولويات منهجيتها: رعاية المبدعين، وتمكينهم من زيادة، ورفدهم، وتشجيعهم، إذ هم الأمل، وعليهم سنضع الحمل الثقيل.

لكن هذا الواجب يرخيه تطرفان متعاكسان:

إفراط يذهب به إلى أبعد من حدود التجارب، فيدعو إلى النخبوية، ويزهد بغير المبدعين، وهو خطأ كبير عقدنا لبيان وجوه السلب فيه فصلاً آخر.

وتفريط يتمذهب بمذهب: سيروا بسيرة أضعفكم، فيدعى أن فى رعاية المبدع تكبرًا على المحدود وإرهاقًا له، فيميل نحو التقلل، والهدوء، وهو تفسير خاطئ لقول قيل لغير هذا الموضع، فيه وأد للطموح وترغيب فى العيش بين الحُفر.

والصواب وسط، إذ الحياة مبنية على التباين فى الفضل والمقدار والمؤهلات، ففى الأنبياء: نبى ورسول، عليهم السلام جميعًا، وأفضلهم محمد ﷺ ، والصحابة طبقات، ومنهم أول ومتأخر، وفى العلماء الفقهاء رهط تميزوا عليهم مدار الفتوى، حتى آل الأمر إلى أربعة يلتحق بهم مقاربون، وفى المؤمنين سابق بالخيرات ومقتصد، وليس بدعة أن نميز وجود المبدع وندعو لرعايته، وقد قيل فى الفيزياء: إن اعتدال الحياة وانتظام حركتها راجع إلى ظاهرة انتقال الحرارة من الجسم الحار إلى البارد، ولولا ذلك لحصلت الفوضى، ورب متحمس يعدو بحماسته الباردين، فتكون مسيرة شاملة لكل جحافل الخير، وهى التى تستمر، وعليها مدار الحياة، بقياة نفر قليل من الأقوياء يتنافسون فى حلبة سباق، ولإثارة حمية الاقتداء، بمعنى: أن تسيير جموع الدعاة كلهم لأداء الهدف الدعوى هو الحال الأمثل المطلوب، قويهم وضعيفهم، ذكيهم والبطىء، لكننا للوصول إلى هذه الحالة من التحريك العام لابد من اكتشاف المبدع، ورعايته، وتدريبه، وتمكينه من ممارسة إبداعه، من أجل أن يكون قدوة للآخرين، ووكيلاً فى التفكير التخطيطي عنهم، ورائدًا يتقدم ويسبق ويضرب المثال فيتبعه الرتل، وبذلك تنتظم حركة الحياة.

الإبداع عطية ربانية، إذا وجدت بذرته فى القلب: فإن التربية تظهره، ويزيد الإيمان توفيق المبدع ويضاعف صوابه.

ثم الإبداع ومضة عمرها عشر لحظة، قد تضيع إذا لم تكن ثم منهجية تترصدها وتنتظرها لتلتقطها وتخزنها وتستنبتها وتطورها إلى مشروع كامل، أو إلى اجتهاد منقذ من حيرة، أو حجة لمبارز فى جدل، أو أداة نافعة تختصر الزمان وتطوى المكان وترخص سعر الكلفة.

ومن هنا كانت منهجية استقبال ومضات الإبداع هى الوجه الآخر لعملة الإبداع الواحدة، وهذه هى نقطة صلة ثانية لقضية الإبداع بقضية منهجية التربية، لكن لأن منهجية الإبداع هى جزء من الإبداع أيضًا، فإن ذلك يعنى أنها لا يمكن أن توصف كوصفة جاهزة نسمى أبعادها ونحدد أركانها، إذ الإبداع فى أصله: خروج عن مطابقة الغير وتقليده، ولكن يمكننا أن نقترب بالمتربى من اكتشاف طبيعة هذه المنهجية المستقبلة للإبداع، عبر استعراض قصص المبدعين، ورؤية تجارب مخططى المشاريع ومنفذيها، ومن خلال ذلك، تنمو قابلية

معينة لدى صاحب بذرة الإبداع تعينه عبر القياس على اختيار سلوكيات محددة تجتمع لتكون هى منهجيته الخاصة فى استقبال ومضات عقله هو وقلبه، أو فى اصطياد فلتات لسان وسلوك الآخرين العراة من منهجية مثيلة، الذين لا يفطنون إلى قيمة صواب مر من أقنيتهم، فيتلقفه صاحب المنهجية الإبداعية بسرعة، كالسارق له، ويضمه إلى مثيل له، ويضيف له لونًا، وتلميعًا، وإطارًا، وغلافًا ويعرضه فى السوق لمن يشترى بهائة ضعف، تمامًا مثل صائغ يأخذ حجرًا خامًا بأبخس الأثمان، ثم يصقله ويتفنن فيه ويبيعه غاليًا.

وهذه الحقيقة تنتقل بقضية الإبداع من مجرد كونها دائرة ضيقة يحتلها العباقرة فقط، أصحاب اللمعات الوامضة والليزر المتمركز الكثيف، إلى دائرة أوسع أضعافًا، يحتلها «صاغة الإبداع» أو «سُرَّاق الإبداع» إن شئت أن تسميهم، عن طريق منهجيات متقابرة يتخذونها لأنفسهم تمنحهم التربية الدعوية مفرداتها ومكوناتها الصغيرة المئوية العدد أو الألفية، عبر قصص المبدعين وأخبارهم، مسلمهم وكافرهم، ما يكتشفه الدعاة من ذلك أو ما يقتبسونه من كتب الغربيين، ثم يقوم كل داعية من هؤلاء الصاغة السراق بتركيب منهجية من هذه التفاصيل خاصة به وفق تصميم خاص تؤدى دور صحن هوائى ضخم يستقبل الشوارد وومضات إيداع الفطرة عند الغافلين عن أنهم من المبدعين، وبهذه الطريقة تثرى الدعوة على حساب الآخرين، حلالًا زلالاً، وبذلك تتضح صلة موضوع الإبداع بمنهجية التربية الدعوية – أن هذه التربية مكلفة بتدريب مجموعة الدعاة كلهم على كيفية تصميم وبناء منهجية الاصطياد الإبداعى، فيكون أحدهم مبدعًا بالأصالة، ويكون الآخر مبدعًا بالسرقة والاصطياد والصياغة لإبداعات غيره وتوظيفها لخدمة الخطة الدعوية، ثم يكون غيرهما من بقية الدعاة غير مكترثين ولا أهل جد، بل تقعد بهم قابلياتهم وهممهم عن المجاراة والإتيان بجديد، وهم أصحاب التقليد والتنفيذ، وليس يضير التربية الدعوية ذلك؛ لأنها لا تستطيع اكتشاف الصنفين الأولين ابتداء، فهى تبذل علمها للجميع، ثم القدر الربانى يختار هذا وذاك، ثم إن الخطة الدعوية تحتاج هذا المقلد أيضًا الذى سيقع عليه الثقل التنفيذى، ثم يكون وسيلة لانتساب مبدع إلى الدعوة، من ولد أو قريب أو مأسور إلى فضل يريد الوفاء.

وبهذا الإحساس ساهم عدد من دعاة الإسلام فى رواية قصة الإبداع للدعاة، يقتبسون من كتب غربية ونحوها، ويضيفون لها لمسة إيمانية وزيادة ذاتية، كان أولهم د. هشام الطالب عبر

مشاركته فى معهد الفكر العالمى بواشنطن، وتلاه د. طارق سويدان عبر مركزه فى الكويت وشركة الإبداع الخليجى، ود. على الحمادى عبرمركزه فى دبى «مركز التفكير الإبداعى» ود. محمد التكريتى عبر مركزه فى بريطانيا «مركز ألفا»، فى آخرين، وآخر العنقود د. سليمان العلى عبر مركزه فى جدة «مركز الخبراء»، وكتبهم نافعة جدًّا للداعية العصامى الذى يستبد به الشوق لإبداع دعوى وحيوى، وينبغى أن تنص المناهج الدعوية على الاستفادة من بعضها، والترويج لبقيتها، وأنا أنصح الدعاة باقتنائها ومطالعتها، وأن كان فى بعضها تكرار وإطالة لا ضرورة لها.

وأنا أزعم- بناء على خبرتى بالواقع الدعوى العالمى ومعاصرتى لثلاثة أجيال دعوية متعاقبة خلال ما يقرب من خمسين سنة بحمد الله- أن الإبداع الذاتى التلقائى فى محيط الدعاة لا يزيد على 3٪ فى أعلى تقدير وهو عندى 1٪ فقط، لكن الإبداع الذاتى المرفود الذى تفجر كوامنه التربية قد يرتفع بالنسبة إلى 10٪، وأما الإبداع غير الذاتى الذى تتولى التربية فيه تعليم الدعاة منهجية الاصطياد والصياغة لومضات الآخرين فقد يرتفع بالنسبة إلى 30٪ إذا ساعدت الحريات العامة فى البلد على تكوين ظروف مساعدة وأتاحت العمل المؤسسى، و30٪ إذا صدقت فراستى هى نسبة عالية جدًّا تنتقل بالمعادلة الحيوية إلى حسم مفروغ منه لصالح الدعوة لا يحتاج غير مرور الزمن لتبدو آثاره، وحركة تدخل سوق الحياة وثلث دعاتها يتمركزون فى دائرة الإبداع أو يتحلقون حول محيطها هى حركة تحتكر المستقبل احتكارًا لاجدال فيه، وستتفلت وتتملص جزمًا بإذن الله من كيد الكتلة البشرية الأميركية وإن أخلت تفاوتات السلاح والعربدة الأمنية ببعض جوانب المعادلة إلى حين يقصر أو يطول، ومثل هذه الدعوة المثلثة الحلال على مذهبى مالك وأبى حنيفة معًا هى كمثل مليونير ثرى يدخل السوق يضارب فيتحول الآخرون أصحاب الألوف إلى مجرد سماسرة له يدلونه على الفرص، ويُنصر بالرعب من مسيرة أسبوع، فيخلو السوق من الأقزام قبل وصوله، ويكون سيد الموقف.

لذلك، ولإغراء هذه الظاهرة لكل مشتاق طال صبره وضربت معاناته عمقًا: فإنى أدعو جمهور الدعاة المربين فى كل قطر أن يتم تركيزهم على تعليم مجموع منتسبى الدعوة أخبار الاجتهاد والإبداع والابتكار والتجديد والتحدى والمصاولة والعناد والالتفاف والانفلات

والترصد والهجوم والتحديد والمبادأة فى العالمين أجمعين، فيقرءوا معهم التاريخ بهذا النفس، ويقرءوا معهم الواقع، ليقرءوا المستقبل.

ومثل هذه القراءات الواقعية والتاريخية تجد كتب العلوم كلها لها مصدرًا، والقانون والأدب، والفن، وتواريخ الحضارات والحروب، ومناورات السياسة، والأداء الاقتصادى، وكذا من مصادرها: الصحف اليومية، والمجلات الدورية، والأفلام الوثائقية والممثلة، وبين جدران المتاحف والجامعات، وعلى معلمى اصطياد الإبداع وغاسى منهجيته أن يجوبوا كل هذه المصادر ويقتبسوا من أخبار الإبداع والمبدعين مائة خبر تليد وطارف كل شهر ليهدوها إلى إخوانهم الدعاة، وعبر التراكم الكمى وفنون الإثارة واستجاشة الحماسة: ستتحرك السليقة الإبداعية عند البعض، ثم يتحرك نهم الاصطياد عند بعض آخر، فتكون الحصيلة الإبداعية الشاملة عالية الكثافة، فيسهل على الدعوة أن تصنع الحياة.

اجلس بنا نؤمن بالإبداع ساعة

* ولنمكث معًا نؤمن بجدوى الإبداع ساعة كما وصفه رائد من هؤلاء المعلمين الذين بادروا إلى اكتشاف ما وراء الرابية ثم رجعوا إلى قومهم منذرين، وهو د. على الحمادى، إذ ساقه إبداعه فى إهداء كتبه لى إلى أن تكون روايته هى المعتمدة، وفى كل دور أنصار الإبداع خير، ولست ألخص كل ما كتب، ولكن آتى ببعضه، وأضرب المثال، لتعرف ما هنالك.

فى كتابه الأول «شرارة الإبداع» يبدأ د. على سرد قصة الإبداع، ويعرفه بأنه مزيج من الخيال والتفكير العلمى المرن، لتطوير فكرة قديمة، أو لإيجاد فكرة جديدة، مهما كانت الفكرة صغيرة، ينتج عنها إنتاج مميز غير مألوف يمكن تطبيقه واستعماله.

وهو يرى أن لا فرق بين الإبداع والابتكار، والمقصود واحد فى اللغتين العربية والإنجليزية، وهو يورث عن الإبداع ربما، لكن الاكتساب بالمعرفة والتدريب هو العامل الأهم فيه، وليست الشهادة المدرسية من شروطه، ولا كل من تفوق فى الدراسة يبرز كمبدع، وأما كلمة الاختراع فقد جعلها العرب تنحصر فى إبداع تقنى ينتج آلة معينة. وأما الاكتشاف فهو إظهار ما كان خفيًّا، ويمكن أن يكون مرحلة من مراحل الإبداع. وكذا التخيل هو مرحلة البداية، ومثلها الحدس، هو مرحلة أيضًا فى الإبداع. وأما الذكاء فهو البداية، ومثلها

الحدس، هو مرحلة أيضًا فى الإبداع. وأما الذكاء فهو من لوازم الإبداع ولكن الإبداع ليس من حتميات الذكاء، والخاطرة مرحلة جزئية فى الإبداع، ويقترن بها التفكير الذى هو من لوازم الإبداع. وأما الإلهام فهو ومضة تقود إلى فكرة جديدة، وقد ينتجه حدث مثير أو عابر، وبذلك يختلف عن سلسلة العمليات الإرادية التى نتبعها للوصول إلى الإبداع.

ولحل المشاكل لابد من الإبداع، لكن وظيفة الإبداع الإتيان بأفكار جديدة تطور العمل، وليس بالضرورة أن تكون هناك مشكلة لتفكر تفكيرًا إبداعيًّا «ويشيع بعض الناس أن من مستلزمات الإبداع أن يكون المبدع فوضويًا غير منظم، أو خياليًّا بعيدًا عن المنطق والتحليل العلمى، أو مشاغبًا متمردًا على القيم والمبادئ والأخلاق، أو مبتذلاً نتن الرائحة كريه المنظر، أو ....إلخ.

والحقيقة أن هذا فهم خاطئ للعملية الإبداعية، بل هو إساءة لهذه المهارة الكريمة والمنهج السديد.

إن وجود بعض المبدعين اتصفوا بهذا الإهمال والتمرد لا يعنى أن الصواب فى صنيعهم هذا، بل نقول: إن هؤلاء شواذ عندهم شىء من النقص ينبغى أن يستدركوه حتى يكتمل إبداعهم ويستقيم منهجهم».

إن المبدع الناجح هو الذى يجمع ما بين أعمال المخ الأيمن والمخ الأيسر، بمعنى أن يجمعوا بين الخيال وبين التحليل العلمى المنهجى، وكلما جمع الإنسان بين هذين الأمرين كلما كان أكثر إبداعًا وأقرب إلى التفكير الابتكارى النافع.

إن أكبر خطأ نرتكبه أن نعرف الإبداع ونحصره بالخيال فحسب، إذ لا قيمة ولا فائدة من خيال لا يتحول إلى فكرة عملية وإنتاج نافع، ولا يتحول الخيال إلى فكرة عملية وإنتاج نافع إلا إذا تنقل عبر مراحل علمية منهجية.

إن العلماء يخبروننا بأن هناك علاقة بين جانبى المخ الأيمن والأيسر، فعندما يتحرك الإنسان «الجانب الأيسر من المخ» فإن هذا يؤدى إلى إراحة الجانب الأيمن من المخ، وهناك يبدأ الخيال العلمى.

لذا: إذا واجهتك مشكلة لم تستطع حلها فاتركها، وانشغل بأمر عضلى، كالمشى والسباحة، وهناك ستأتيك الأفكار الإبداعية لحل مشكلتك إن شاء الله تعالى.

خلاصة ما نريد أن نصل إليه هو: أن الإبداع عملية مهذبة سامية، فيها خيال خصب، وتفكير منطقى، وعمل منظم، وتحليل علمى، ونظرة واقعية، ومنهج قويم، وأدب جم (1).

* والتقليد عدو الإبداع اللدود، ولذلك عابه القرآن على المشركين لما جعلوه أساس منطقهم فى الشرك واعتذارهم بأنهم وجدوا آبائهم على أمة وأنهم على آثارهم مقتدون، ولا يعنى هذا الكلام عدم الاستفادة من تجارب وآراء وإبداعات الآخرين، ولكن المقصود هو الابتعاد عن التقليد الأعمى الذى لا تراعى فيه الظروف والأحوال والأشخاص والوقت والمكان، والذى يحد من استقلالية الإنسان ومرونته فى التفكير والتأمل (2).

* وكذا الروتين «إننا مطالبون ــ إذا ما أردنا أن نبدع ــ أن نفكربطريقة مرنة وجديدة غير مألوفة، ولكننا غير مطالبين بأن نعلن حربًا ضروسًا ضد كل ما هو نمطى روتينى». فإنك إذا استفدت من الروتين لتسهيل الإجراءات وتنظيم العمل ومن ثم خطوت خطوات إلى الأمام بأن طورت وغيرت فإن الروتين سيكون لك فاتحة خير ونعمة كبيرة». «ولكن إن كان معيقًا للعمل، معطلاً للإنتاج، مضيعًا للوقت والجهد، غير مساعد على التطور والتقدم، فينبغى أن نتخلص منه، وذلك بأن نعمل عقولنا ونفكر بطريقة جديدة غير مألوفة، وهنا يكون الإبداع (3).

* ويتحول د. على إلى الحديث حول العقل، الذى هو الموطن الرئيس للعملية الإبداعية ويعرفه بأنه المجموع الكلى المنتظم للبنيات والعمليات النفسية، الواعية واللاواعية، وهما ليسا بعقلين منفصلين، ولا يعملان باستقلالية عن بعضهما البعض، وإنما لهما وظائف منفصلة، ولهما كذلك وظائف مترابطة، وكلا العقلين يقومان بعمليهما بدقة وكفاءة فريدتين.

* وينقسم العقل الباطن إلى الباطن، والباطن الخلاق.

---

(1) شرارة الإبداع/ 57.
(2) شرارة الإبداع/ 62.
(3) شرارة الإبداع/ 65.

obeikandi.com

* **فالعقل الواعى:** يدرك العالم من حوله، أو الحقيقة، من خلال الحواس، ويحتفظ باتصال معتدل مع الواقع، وله أربع وظائف: الإدراك، ويظل إدراكنا ناقصًا. والربط، يربط ما ندركه بالمخزون فى العقل الباطن. والتقويم، بمقارنتها بالخبرات السابقة، والتقدير: باختيار الفعل المناسب.

* **وأما العقل الباطن:** فهو يشير إلى مجموعة العناصر الديناميكية التى تتآلف منها الشخصية، وبعضها قد لا نعيه. ويتم التخزين من خلال تعبيرات كيميائية فى الهيكل البروتينى لنوايا الخلايا العصبية للدماغ، والعقل الباطن لا يقوم فقط بتسجيل الأحداث والخبرات بالتفصيل؛ وإنما يسجل المشاعر أيضًا المصاحبة لتلك الأحداث. لذلك فإن الحقيقة كما نراها قد تكون مشوهة وغير حقيقية ومضرة بالمقارنة بتفسيرات موضوعية للحقيقة.

وبجانب التخزين يقوم العقل الباطن بالإشراف على الوظائف الأوتوماتيكية، مثل دقات القلب وعمليات الهضم.كذلك الوظائف التى تم تعلمها ذات الصفة الأوتوماتيكية، مثل المشى وقيادة السيارات وجدول الضرب.

* **وأما العقل الباطن الخلاق:** فهو برمجة خضع لها تفكيرنا وأفعالنا استنادًا إلى عادات قديمة، بحيث يتسبب لنا توتر وضغط نفسى إذا طرأت خبرة جديدة، كالانتقال لوظيفة جديدة. وتتأثر الصورة الذهنية التى نكونها عن أنفسنا بهذه الاتجاهات، السلبى منها والإيجابى، وعقلنا الباطن يحافظ على الحقيقة كما تصورنا، بحيث يجعلنا نفعل دائمًا مثل الشخص الذى تخيلناه أنه نحن، أى صورتنا الذهنية عن أنفسنا، فمن يعتقد أنه ضعيف فى الحديث سيتلعثم إذا تحدث، ولتفادى هذه السلبية: لابد من تعديل صورتنا الذهنية الذاتية عبر الحديث الذاتى الإيجابى وتعابير الثقة والتحدى، وبذلك تعاد برمجة عقلنا الباطن الخلاق بالإيحاء.

فإذا عزمت على خوض غمار الإبداع فإن د. على يشير عليك أولاً أن تبحث عن البدائل دائمًا، بلا مبالغة، ثم افتح بنكًا تودع فيه البدائل والأفكار الإبداعية عن طريق تعيين هدفك بوضوح، لتتعين الوسيلة لتحقيقه بوضوح، ثم استفز مقدرتك الإبداعية بذكر نقيض أفكارك الأخرى، فالطبيب مثلاً يذهب فى الطريقة المناقضة إلى المريض وليس العكس، ثم أدمج بين

فكرتين ينتج استعمال ثالث لهما، وحاور عددًا من العقلاء المتفائلين: تنقدح لك رؤى، ثم انفرد وحلق فى خيال: يأتك مزيد، وإذا أعدت وصف المألوف أوصلتك الإعادة إلى جديد بمقدار المترادفات التى ستوسع بها المعاني الوصفية، وتزداد هذه القابلية إذا خرجت من محيطك الذى يتكرر يوميًّا إلى مكان آخر وتركز للتفكير هنالك بنقاط القوة والضعف والمخاطر لكل قضة ومحاولة معرفة فرص الاستدراك والتنمية، ثم ترجع مرة أخرى لتجلس مع دعاة آخرين فى لقاء ودى غير مبرمج وتطرح قضية غريبة، فيولد الحديث العفوى عندك الأفكار، وإذا شفع طالب الإبداع ذلك بأسئلة جزافية خارجة عن العرف والمألوف يسأل نفسه منفردصًا ورد احتمال تضمن الأجوبة لأفكار واقعية، ثم يعود إلى جلسة مع أقران فى حدود العشرة يمارسون فيها العصف الذهنى، بأن يكون ديدن الجميع طرح أفكار جديدة حول قضية معينة من دون الحكم عليها ونقدها أولاً، ومن خلال الكم الكثير لها تنبثق صفة إمكان تطبيق بعضها، أى يكون هدف الجلسة فى مرحلتها الأولى تجميع أكبر مقدار من الأفكار، حتى تكون كثرتها مثل سيل هادر، وهذا لا يكون إلا بإطلاق حرية التفكير للجميع فى جو مرح من دون اعتراض وتخطئة، فتكون الطلاقة هى مورد الرصيد الفكرى فى بنك الابتكار، ثم بعد ذلك فى المرحلة الثانية من الجلسة يكون النقد والتمحيص وقبول بعض المقترحات بإضافة شروط لها أو تهذيبها وإعادة صياغتها وإبعادها عن الغرابة، وإذا كان رئيس الجلسة نبهًا سريع الاصطياد لأفكار المشاركين العفوية ويستطيع كتابتها على لوح ليراها الجميع فإن نجاح الجلسة يكون واردًا، وبخاصة إذا ارتفع التكلف بأن يكون الجميع أقرانًا أو متقاربين ليس بيهم أحد يهابونه أو يستحون منه أو ترهبهم سلطته. ثم تسند النتيجة بعصف كتابى وفق نفس القواعد، تطلق فيه الحرية للمشاركين لكتابة أفكارهم بلا رقابة، ثم يتم تصنيف الأفكار، ويجتمع الجميع لتقويمها واختيار أوفقها، ويستحسن أن تتم كتابة كل فكرة فى بطاقة مستقلة، ويتم خلط البطاقات وإعادة توزيعها من أجل أن يضيف آخر على فكرة البطاقة شيئًا، وبذلك تنمو الأفكار، ويمكن عكس الأسلوب، بأن يتبنى الجميع محاولة تجويد فكرة واحدة معينة عن طريق مختلف طرق التجويد، من استبدال بعض أجزائها بما يكون أسهل أو أرخص أو أكثر قبولاً، ومن اشتراط شروط تعصم من الغلو أو التفريط.

وعلى العموم فهذه الطرق تعنى التوسع فى التفكير الأفقى الذى يحاول اكتشاف أكبر كمية

من البدائل، وليس مجرد التفكير الذى يحاول التعمق فى بحث قضية واحدة عبر بديل واحد أو بدائل قليلة.

* **ومن الطرق الإبداعية:** وضع جدول ذى حقل أفقى لعامل معين يحكم قضية معينة، وحقل عمودى لعامل آخر يتحكم بالقضية، فيتقاطع الحقلان، وتكون نقاط التقاطع الكثيرة بدائل فى القضية، أو يتم رسم graph بها، فتتضح تقلبات القضية ومسيرتها وتاريخها، مما يجعل ابتكار تطويرها أسهل، وهذا هو الأسلوب العلمى المشهور فى تلخيص القضايا، وقد يكون الجدول أكثر تعقيدًا عبر تعدد العوامل، فتكون البدائل أكثر عندئذ.

* **ومن الطرق:** الالتفاف على المألوف، أو على ما يظن به أنه من البديهيات والمسلمات، فيكون اللجوء إلى معايير جديدة مثلا أو شروط جديدة؛ طالما أنها تحقق الهدف المراد، بدلاً من الاستئسار لمعايير معينة فترة طويلة، فيكون الهروب من القديم إلى الجديد حلًّا.

* **ومن الأساليب أيضًا:** اختيار قضية معينة، وتمرير خمسين اصطلاح محدد المعنى عليها باختيار عشوائى، لنرى ما إذا كانت هناك علاقة لبعضها بالقضية، ومن خلال ذلك تتكشف لنا أفكار وبدائل ووجوه تطويرية للقضية، ربما.

* **ومن الأساليب:** النظر إلى القضية بعيون الآخرين، فينظر الداعية إلى قضايا الدعوة بعيون رجال الأحزاب المنافسة، ورجال المخابرات، والحاكم، والمراسل الصحفى الأجنبى، والجيل الصاعد، والجيل الهرم، ورجال الاستثمار الاقتصادى، مثلاً، فى عشرة عيون أخرى، ومن خلال افتراضه لمواقفهم وأحاسيسهم تجاه الدعوة سيكتشف الكثير من الأفكار الإبداعية التطويرية.

* **ومن الأساليب:** محاولة التفصيل فى تنفيذ قضية جديدة من بعد وضع وصفها الإجمالى بخطوط عريضة، وتحديد التفصيل عبر سيناريو دقيق يستعرض بدائل كثيرة للانتقاء منها.

* **ومن مولدات الإبداع:** الاستفزاز والإثارة، بأن يستفز رئيس مجموعة أصحاب بأسئلة محرجة وجريئة، من أجل أن يفوهوا بأجوبة فيها من التحدى ما يوازى نقل السؤال.

* **ومن ذلك: الافتراض، بأن تسأل:** ماذا لو حصل كذا، لأمر المعتاد، بحيث تتخيل حصول خلاف المقصود منه أو خلاف الغرض المخصص له، وبذلك تتوارد أفكار إبداعية

عبر كثرة السؤال، تتضاعف بإثارة سؤال: كيف يمكن ذلك؟ أو كيف سيكون رد الفعل، أوكيف يحقق الهدف؟

* وحاول أن لا تكون مجرد ناقد للإبداع تستدرك على الآخرين وجوه إبداعهم وتتعود الرفض، بل أن تكون مستدركًا بإضافة بديل للفكرة والمنقودة ورأى يوازيها ويخدمها أو يحسنها.

* واعلم أن لغات إبداعك عديدة بعضها يرفد بعضا، فمن لغة الوصف، إلى البصريات وسوائل الإيضاح، إلى الإحصاء، إلى المنطق التحليلى التعليلى، وإلى الدغدغة العاطفية، إلى التنظير وكشف البعد الفلسفى، وكل ذلك مطلوب لاكتشافك جزيئة من الإبداع، ولدفاعك عنها، وترويجك لها.

* كذلك من الأساليب أسلوب المراحل المتعاقبة، فتمر بالقضية على عشرة مفاصل: البدائل، الإضافات، التعديلات، التغييرات، التكبير، التضخم، التصغير، التخفيف، اكتشاف استخدامات أخرى، الحذف، القلب والمعاسكة، ثم إعادة الترتيب.

* **ومن طرق اصطياد الإبداع:** أن تجعل للموضوع نقطة مركزية تكتبها على ورقة، ثم تستخرج خطوطًا مقوسة من هذا المركز كفروع يخصص كل قوس لمسألة تفصيلية، وربما فرعت على الفرع، ثم اربط بواسطة الأسهم بين المعانى المتقاربة أو ذات التأثير المتبادل، ويكون لقلمك جولات يمينًا ويسارًا وإلى أعلى وأسفل، مع استعمال الألوان والأشكال الهندسية والإشارات التصنيفية، فتتكون من كل ذلك خارطة مبسوطة بين يديك تعينك عبر تكرار النظر على تثبيت صورتها فى ذهنك، وبذلك ستهجم الزيادات الإبداعية هجومًا أثناء راحتك ومشيك ونومك واستحمامك وتناول طعامك، فتضيف فرعًا، وتكشف علاقة، وتخترع اصطلاحًا، حتى يستوى الموضوع تامًّا. وهذه هى طريقتى المفضلة، وعبرها دونت جميع كتب سلسلة إحياء فقه الدعوة والمحاضرات والخطط.

فهذه خلاصة ثلاثين طريقة لتوليد الأفكار الإبداعية اقترحها د. على فى كتاب واحد من كتبه، وأوصاك أن تتقن تقويم الأفكار الإبداعية برؤية مدى فوائدها وإيجابياتها وتخمين تقبل الآخرين لها، وتجنب سلبياتها، وفحص مدى الواقعية فيها، ومقدار الإثارة، وقد سردتها لك

obeikandl.com

ببعض التصرف وأضفت كلمات. وختم على كتابه بالإشارة إلى ما عند بعض العلماء من أن التفكير ستة أنماط: محايد، وعاطفى، وسلبى، وإيجابى، وإبداعى، وموجه، ولكل نمط أو نوع صفات معينة وحقول اهتمام، فالمحايد يميل إلى تجميع المعلومات والإحصائيات دون تفسير لها أو استنتاج، كأنه كمبيوتر. والعاطفى يهتم بالمشاعر والجوانب الإنسانية والتخمين الجزافى، والسلبى متشائم رافض يركز على المشاكل والتجارب الفاشلة، مع تردد وإحجام. والإيجابى متفائل مقدام مستعد للتجريب متحين للفرص منطقى طموح. والمبدع مجدد مفتش عن البدائل ديدنه التطوير ويحلق فى الخيال ويستهين بالمخاطر. والموجه منهجى أموره مرتبة يدخل إلى مركز الموضوع مباشرة ويلخص الآراء بمهارة ويوظف الحقائق بأسلوب منطقى، وليس إحلال نفسك المحل الأخير بسهل، إذ كل ميسر لما خلق له، وهى أقدار وزعت على الناس أنماط التفكير كما وزعت الأخلاق والطبائع، ولكن مع ذلك يمكنك التسديد والمقاربة وإجبار نفسك على حيازة ما يتوافق مع الهدف الدعوى والطبيعة الإيمانية من كل هذه الأنماط، لعلك تصل وتغنم النمط الشمولى أونصفه أو ثلثه، والثلث كثير، وبه ستصول وتجول، وترفع وتخفض.

* وقد خرج د. الحمادى عبر كتابه «صناعة الإبداع» إلى تعيين صفات المبدع من بين الصفات الكثيرة لأصحاب الأنماط الستة الآنفة، فوجده: واثقًا، مثابرًا، متأملاً، لا يحب الروتين والخضوع لقواعد صارمة، وله قدرة على تحمل المسئولية، وعلى المبادرة، وفهم دوافع الآخرين، كما أنه واسع الأفق، دائم التساؤل، ويتزن إذا انفعل، مع فطرة تحليلية استدلالية، وحب للتجريب، كما أنه ينافس ويتحدى، ويقاوم تدخل الآخرين فى شأنه، ويميل إلى التجديد، مع حزم وإقدام وحب مخاطرة.

وخلاصة طريقك إلى صنعة الإبداع: أن تجمع أفكارًا كثيرة أولاً، ثم تقوم بغربلتها وإلغاء السَّيِّئ منها، وأن لا تذهب فى الإغراب بعيدًا، وأن تصمم على المواصلة إذا أنكر عليك المقلدون، مع تركيز على الأشياء المثيرة، وإخراج من أسر العادة، وفكر قبل النوم، وامرح، وشاور، وإذا عزمت فتوكل على الله.

* وفى التشبيه والاستعارة استفزاز لكوامن الإبداع، ولا تحقرن من الأفكار صغيرًا، وعلى أحلام اليقظة تعويل، والافتراض مصدر ثرى، وأعن نفسك باللعب والراحة والسباحة، وأتخذ المبدعين اصدقاء، اقرأ قصص الإبداع، واهنأ بحياة إيمانية.

ومن الواجب أن تخرج بالإبداع من كونه مهمة فردية يخاطب بها الداعية، إلى مهمة مؤسسية تخاطب بها القيادة، بأن تعتبره القيادة موردًا رئيسًا للتطوير، وبأن تثق بجميع إخوانها الدعاة أنهم أهل لانتظار الإبداع منهم، فسابق ومقتصد، وبأن توجه العملية الإبداعية وتعقد لها الجلسات الجماعية، مع توفير بيئة ثقافية تربوية ترفع من قيمة الإبداع وتروج له.

* ويتم تكميل هذا التوجه القيادى فى ترويج الإبداع: بكبت معوقاته، باتخاذ تربية تغرس الثقة فى نفوس الدعاة وتحارب إيحاءات الشعور بالنقص والضعف، والخوف من النقد، وهبوط الطموح، بل تعلمهم التحدى، واستثمار الأوقات بما ينفع، وشجاعة اعتناق الخواطر الواردة إذا شهد لها المنطق. وابتداء فإن المؤمن العفيف أقرب إلى أرض الإبداع بيئة مرة من فاسق منغمس فى الشهوات يبذر أوقاته ويبقى ذهنه شاردًا، وينبغى أن تقنع تربيتنا الدعاة بأن الإبداع ليس صنعة العباقرة فقط ولا الشباب فقط، ولا يحتكره الأغنياء دون فقراء، ولا الرجال دون النساء، ثم هو لا يحتاج مالاً، ولا جهدًا استثنائيًّا، ولا ألمًا ومعاناة.

وعلى المربى أن لا يزهد فى إبداع تلامذته لمجرد تجربة فاشلة سجلت على أحدهم، أو ينسبهم إلى الفضول ويظن أن الإبداع صنعة القادة فقط، أو أن يستكبر فكرة يظنها أكبر من الجماعة، أو يستصغر أخرى يظنها أصغر من الجماعة، أو أن يستسهل تأجيل بحث الأفكار دون ضرورة، فإن كل ذلك قاتل للإبداع.

* ومن اجتهادات د. الحمادى فى منهجية الإبداع: التركيز والابتعاد عن مسببات الإزعاج. والوضوح، بتحديد الموضوع والهدف لتتضح الوسيلة. والتقصى، بجمع المعلومات عن تاريخ الموضوع وواقعه الحالى والتجارب المشابهة. وتوليد الأفكار الإبداعية، باستعمال الطرق المذكورة سابقًا، مثل العصف الذهنى، والتفكير بالمقلوب. والتنقية، بدمج بعض الأفكار، أو إلغاء بعضها عبر التدقيق وتضييق عامل الإغراب. ثم التقويم العلمى والعاطفى، ببحث إيجابيات الفكرة وسلبياتها ومدى إثارتها وواقعيتها، أو انتسابها إلى نمط

معين من أنماط التفكير السبعة. ثم الاختيار لأقل البدائل كلفة وخطورة وأكثرها قبولاً لدى الناس. والتهذيب، بتزيين الفكرة وتبسيطها وخدمتها إعلاميًّا، والتسويق، باختيار الوقت المناسب وشرح مميزاتها. ثم الإنتاج أخيرًا، بأن تعهد بالفكرة إلى رجال لتنفيذها.

* ثم تحول د. على إلى استعراض آلية الإبداع التى اقترحها د. طارق سويدان، ومنهجية أخرى اقترحها د. نجيب الرفاعى، ولكنى لا أرغب فى اختصار رواية د. الحمادى لآرائهما، لوجودها فى مظانها الأصلية. وانعطف د. على ثانية نحو الحديث عن المخ، والذى تبلغ خلاياه العصبية عشرة آلاف مليون خلية، لها مجسات عديدة ترتبط بواسطتها فيما بينها، فتتكون طرق كثيرة للارتباط والتفاعل، وعلى مقدار عدد هذه الطرق تكون درجة الذكاء، والمخ الأيمن يقوم بترتيب وإعداد الأعمال التالية: الخيال، الألوان، أحلام اليقظة، الأبعاد، الألحان، الأصوات. بينما يقوم المخ الأيسر بترتيب أعمال: المنطق، القوائم، الكلمات، الأرقام، الترتيب، التحليل.

ومن خصائص الذين يستعملون النصف الأيمن: تفضيل الشرح العملى، واستخدام الصور العقلية، ومعالجة المعلومات بطريقة كلية، وينتجون الأفكار بالحدس، وينشغلون فى أكثر من عمل فى وقت واحد، ويستطيعون الارتجال بسهولة، ويفضلون الأفكار العامة. بينما خصائص الذين يستعملون النصف الأيسر معاكسة، فهم يفضلون الشرح اللفى، ويستخدمون اللغة، ويعالجون المعلومات بالتتالى، وينتجون الأفكار بالمنطق، ويركزون على عمل واحد، ويفضلون التفاصيل.

* ومن الأهمية بمكان أن يقتنع المرء أن بإمكانه أن يكتسب مهارة الإبداع، وأنها ليست حكرًا على نفر قليل من الناس، ولذلك يكون من المفيد استعراض بعض طرق تنمية الإبداع.

1- **الإبداع بالنقش المبكر**، بتعليمه فى سن الطفولة، ويشهد لهذا حديث: «كل مولود يولد على الفطرة؛ فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه.

والأسلوب التلقينى الشائع فى تعليم الأطفال خطأ، والصواب أن ندع الطفل يتوسع فى الخيال، حتى إذا كبروا: أصبحوا قادة الإبداع. ينبغى أن نساعد الطفل على التفكير الحر، والمناقشة، وعلى المعلم أن يطرح أسئلة تثير الاهتمام، وينتج أسلوب الجلسات المفتوحة، وقد

ذهبت بعض المدارس مذهبًا جريئًا فى إقرار اختيار ما يريد الطفل أن يتعلم، ومتى يريده، مع توفير بدائل، فى نظام تعليمى مرن، فكانت النتيجة: تفوق التلاميذ وتحليهم بثقة عالية، وكان من جملة الطريقة: تعليم الطفل الخيال الواسع، فيتخيل غرفته تتوسطها حديقة ذات نافورات، وباب المنزل على شكل عجلة قاطرة، وكتابه على هيئة كرة، وشمعة فى قرص الشمس. وتساعد ذلك تمارين لفظية، مثل إيراد الطفل لأكبر مقدار من الأسئلة عن الغابات، وأسئلة عن الاستعمالات غير العادية لزجاجات المشروبات الغازية، وقائمة بكلمات تبدأ بحرف معين. ويمكن لمجموع الدعاة أن يكسبوا المستقبل ويحققوا تفوقًا إستراتيجيًّا عبر تنفيذ خطة سهلة لتنمية إبداع أطفالهم.

* **أقول:** وطالما كانت التقارير تشير إلى نمو ضخم للجانب الإبداعى لهؤلاء الصغار، فإن الدعوة مطالبة بأن ترعى«مستقبل التربية الدعوية»، بأن تعتنى منذ الآن بأبناء الدعاة وأبناء المؤمنين فى مدارس إسلامية خاصة تنتهج منهج توسيع الخيال والتفكير الحر هذا، لينشأ جيل مبدع بعد عشرين سنة تخدم الدعوة خدمات مميزة ويرجح ميزانها فى التنافس. ويجب أن نوقن بأن التربية الدعوية تبقى دون المستوى المطلوب مهما فعلت إذا لم تتضمن منهجيتها العناية بالداعية منذ أيام طفولته، ولسنا نتألى على الله تعالى فنزعم أننا نضمن هذا الطفل أن يكون داعية منذ أيام طفولته، وإنما هى توفيقات ربانية، لكننا ننفذ ما يتفق مع الحدس الصحيح والنظر المنطقى السليم، فإن هؤلاء الأطفال ــ وبخاصة أبناء الدعاة والمؤمنين ــ إذا خضعوا لتربية إسلامية ذات توسيع للخيال وتفكير حر فإنهم مظنة أن يكونوا دعاة إذا كبروا، ثم مبدعين، ونبذل الجهد تحت مظلة: عسى ولعل، مع تفاؤل يليق لهذا المقام، ويجعل تعليم الأطفال صنعة الإبداع نقطة مميزة ظاهرة فى منهجية تربيتنا الدعوية.

2- **الإبداع بالأشكال:** كطريقة ثانية، وهو أسلوب يقوم على استخدام الأشكال والصور والرسوم المختلفة من أجل تنمية القدرة الخيالية، وهو أسلوب معروف فى التربية المدرسية بخاصة، ويمكن تطويره إلى تعليم التصاميم وتنمية المقدرة على وضعها.

3- **الإبداع بالمشاهدة:** فإن الصور الغريبة ومشاهدة ما خلق الله تعالى من عجائب توسع المدارك الإبداعية بلا شك، وبخاصة إذا حاول المشاهد حل ما فيها من غموض وتعقيد، إذ إن ذلك يوسع الخيال، فيتحرك الجانب الأيمن من المخ.

4- **الإبداع بالألغاز :** لأنها تنمى الخيال أيضًا ويضطر الشخص لتركيز تفكيره والخروج من النمطية.

5- **الإبداع بالقصة:** إذ فيها تسلية وعظة، وسبب مساعدتها على الإبداع أن فيها من الأحداث والمواقف ما يحتاج القارىء إلى الربط بين عناصرها، ومع تحرك العاطفة والخيال وتحليل طبائع أشخاصها، ومن الممكن أن تتقاسم مجموعة طلاب الإبداع بطولة قصة وهمية ويترك لكل منه الحديث عن دوره فى القصة، مثل مغامرة فى غابة، أو يطلب من أحدهم اختراع قصة ويحاول البقية إضافة تفصيلات لها.

6- **الإبداع بالمعايشة:** عبر الصحبة لأهل الإبداع والنظر إلى سلوكهم، ومحاورتهم.

7- **الإبداع بالخطابة:** إذ إن الفكرة الإبداعية الكامنة تحتاج طلاقة لفظية من قبل صاحبها لإطلاقها والتعريف بها. وهنا تنفع المترادفات والثروة اللغوية ومعرفة الفروق الدقيقة بين معانى الألفاظ.

8- **الإبداع بالذاكرة:** لأنه يربط بين الأحداث المختلفة الزمن، لذلك يليق لطالب الإبداع أن ينمى ذاكرته، بأن يذكر أحد أمامه مجموعة مشاهد ثم يطلب منه تذكرها بعدئذ.

والمخ الأيمن يقوم بتمييز الألوان والأفعال والأصوات والخيال، ولذلك فإن تخيل طالب الإبداع للأشياء دائمًا يعينه على تنمية هذا الجانب من المخ وسرعة استرجاع ما خزن فيه.

كذلك ينفع إيجاد رابط بين الاسم وشىء ملموس لتتذكره بسرعة. وكذا ترتيب الأشياء وتنظيمها، وتنظيم الأوقات يعين جدًّا على تذكرها، وأيضًا تنفع دراسة المعادلات أو النصوص قبل النوم، إذ إن للمخ قدرة غريبة على ترسيخ معلومات ما قبل النوم أثناء النوم. ومن الواضح أن التطبيق العملى لكل شىء يطبعه فى المخ، والهدوء والمنظر الجميل عوامل مساعدة على ذلك، وحصر الذهن فى الموضوع يجعله منطبعًا فيه، ولذلك فإن الصلاة تساعد المبدع لأنها تدريب عملى على الخشوع وحصر الذهن فى العبادة، والتكرار يضاعف الأثر. والبلاغة والجرس الموسيقى للكلام من عوامل حفظ واستيعاب النص أو الحدث، وإذا نسب الكلام إلى رجل مشهور أو عالم كان أرسخ فى الذهن، كما أن سلامة الجسم وإشباع الرغبات تعينان المبدع، وكذا أن يتقصد الأوقات الجدية مثل بعد الفجر، وهدوء الليل، وأيام الربيع.

obeikandl.com

فهذه إشارات إلى الإبداع المنشود، برواية د. على الحمادى عن جيل من مدربى الإبداع، أردناها أن تكون مثالاً فحسب، والداعية اللبيب ينحى هذا المنحى، إذ تبقى أرض الإبداع واسعة العرصات، وإنما قصدنا تثبيت التوجه الإبداعى كفقرة مهمة فى منهجية التربية الدعوية، والداعية مؤهل أكثر من غيره لهذه الممارسة الإبداعية، إذ هو العفيف النظيف البرىء الجاد، وغيره مستهلك فى الدخان والخمر والمخدرات والزنا واتباع الشهوات، وكفى بهذا الفارق عامل تفوق حاسم على المدى البعيد، كما أن قضية «الاجتهاد الفقهى» هى قضية إبداع أولاً وآخرًا، بل هو ذروة الإبداع، لأن شعور المجتهد بالمسئولية الأخروية وخضوعه لضغوط التقوى يجعلانه يحتاط حين اجتهاده أشد الاحتياط، فيعصر عقله عصرًا لإيجاد مخرج من مشكلة معروضة، وكل داعية مسلم ينفعل بجزء من انفعالات المجتهد المفتى وإن لم يكن مجتهدًا، إذ هو مهتم بأمر المسلمين، ولذلك تحرك المشكلة أحاسيسه، ثم يقف موقف الناقد لاجتهاد المجتهدين ويستمع لتقويمها من إخوانه الدعاة الآخرين، فيتولد من كل ذلك نوع من التأثر بالإبداع الاجتهادى، ومع تكرر الأيام وتكرر المشكلات والإفتاء: تتجمع هذه التأثرات فتكون كتلة من الأنماط الإبداعية ترتقى بالمستوى العام الفكرى للداعية لا يملك مثلها المثقف العادى، فتكون عامل ترجيح آخر للدعاة بعد ذاك العامل الأخلاقى الأول.

وكل قصة الإبداع هذه إنما كانت الدرس العاشر الذى نستله من القياس على منهجية الفيزياء ومنهجية العلوم بعامة، وبها تكتمل العشارية الكاشفة لدربنا المستقبلى المستوحاة من عملية تطور الفيزياء.

نسرق العلم ونوزعه

هنا ينشأ إشكال سؤال:

هل هذه المغانم العلمية تحتم أن نجعل منهجنا الدراسى الدعوى موطنًا لتدريس الفيزياء والعلوم؟

ليس ذاك، ولكن ترويج العلم والفيزياء بخاصة له مدارج أخرى فى الحياة الدعوية، وليس من الصواب أن تشغل أوقات الاجتماعات الدعوية بدراسة علمية بحتة، بل ولا يمكننا ذلك حتى لو أردنا، وإنما هى وسائل أخرى عديدة لنشر الثقافة العلمية فى الأوساط

الدعوية بقصد تحصيل إلقاءاتها فى النفوس، وإثارتها للإبداع، وللنمط المنهجى والتخطيطى.

* **فى مقدمة ذلك:** أن نوجد تيارًا صناعيًّا إسلاميًّا يعتمد على العلم، وبذلك تحدث انعكسات فى النفوس من خلال الأداء، ولذلكم قصة طويلة سنفرد لها فصلا خاصًّا.

* **ومنها:** ترويج المطالعة العلمية فى الأوساط الدعوية، إذ يمتلك كل داعية شيئًا سمن الوقت الحر، يصرف بعضه للمطالعة الشرعية والفكرية، ويخصص شيئًا للعلوم التطبيقية، وقد تيسر ذلك بوجود كتب تبسيط العلوم والموسوعات المتنوعة.

* **ومنها:** زيارة المتاحف العلمية والمختبرات ومراكز البحوث والمراصد الفلكية ما أمكن.

* والاختلاط بأهل العلم، مسلمهم وكافرهم، فإن الحماسة تدب فى نفس المتعلم بلا شك.

* **ومنها:** إقامة ندوات ومحاورات ودورات علمية فى المحيط الدعوى بين آونة وأخرى لعرض مستجدات العلم ونقد العلم بأنفاس إيمانية.

* وكذا إصدار مجلة علمية متخصصة بأنفاس إسلامية، وربما تتعاون الأقطار على إصدارها وتتحدث عن بقية خبر فيزياء الكم والإعجاز العلمى فى القرآن والسنة، وأشياء مقاربة.

* **ومثلها:** مشاهدة الأشرطة العلمية كجزء من دورات التطوير الدعوى، إذ هناك ألوف أشرطة الفيديو العلمى التى أنتجتها المؤسسات الغربية، وكثير منها مفيد ومبسط، ويتم تعاون فى انتقاء هذه الأشرطة مع دعاة من أهل العلم يقيمون فى الغرب. هذا إذا لم تبلغ الهمم المبلغ العالى الذى يستجيب لاقتراحنا لإقامة قناة ثقافية علمية فضائية عالمية إسلامية.

فكل ذلك من شأنه إيجاد توجه علمى فعال فى الأوساط الدعوية، يعين بإذن الله على تربية جديدة، الدعوة بحاجة إلى أن تلمسها فى دعاتها.

لكن يتطلب الأمر نوعًا من التوجيه القيادى المعنوى المستمر، ثم بعض التمويل المركزى للرحلات المنهجية العلمية، وربما يحتاج الأمر أن يبرز فى كل قطر مركز إسلامى علمى متخصص يرعى هذه الخطة العلمية الدعوية ويروج لها ويستثمر العطاء العالمى الموجود الذى يؤذن لكل أحد أن يغترف منه، وسينتصب الداعية العالم رئيس هذا المركز منارة شامخة فى

قطره يعلم الناس أخبارًا جديدة طريفة فى منهجية التربية الدعوية.

وفى كل شأننا هذا ــ حين طلبنا من فيزياء الكم أن تجيرنا وتكفلنا ــ ما كنا واهمين، وإنما سلكناه مقتفين أثر حجاج علمى رصين أبدعه الأستاذ القدوة الهُمام عبد الحليم خفاجى لما كان له ولإخوانه الأبرار «حوار مع الشيوعيين فى أقبية السجون» نطقت حقائق الفيزياء خلاله فكشفت وهم الإلحاد.

* * *

obeikandl.com